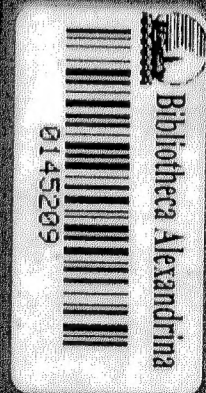


في زيكاده

# طلبات واشعرا



مؤسسة نوفل







طَلَبَاتِ فَاشَعْتَا



مِي زِيَادَه

*Bibliotheca Alexandrina*

طُلُبَاتُ فِرَاشِ عَتَا



مؤسسة نوفل  
مكتبة وبيت الوثائق

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِر  
الطبعة الثالثة  
٢١٩٨٥



© مؤسسة نوفل شرمم

مكتبة وطنية، شارع الامتياز  
مكتبات ٢٥٤٨٩٨ - ٢٥٤٣٩١، مكتبة ٢٢٤١، مكتبات  
م. م. ١١ / ٢١١١، مكتبة ١١ / ٢١١١، مكتبات



# ظلماتٌ وأَشْعَثُ





## مِنْ كُوتَةِ الْحَيَاةِ

... وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا أقف  
ومن ذا أوقفني هناك. وإذ بالناس في السبيل يمرون،  
فأخذت أتفحص الوجوه منهم والحركات لعلِّي أعثر  
على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عني، ولعلِّي  
أدرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثي وحيرتي  
وجهلي وقلة اختباري. فصرت أعجب بالناس  
وأغبطهم على ما لديهم وليس لي أن أفوز بمثله،  
وأتعزى بمظاهر الكتابة عندهم لتكون تلك المظاهر  
صلة، ولو واهية، بيني وبينهم. على أي لم ازدد إلا  
شعوراً بحيرتي وعجزتي، لم أزد إلا شعوراً بأني  
خيال لا ضرورة له ازاء تلك الأقوام الفرحة  
الضاحكة - مع أن هذا الخيال يطلب منه شيء كثير  
لا يدري ما هو. فظننت لحظة أني وصلت إلى قرارة  
اليأس وأنا شربت كأس المرارة حتى الثمالة. ثم  
أوحى إليّ بأن هناك وجوداً غير ملموس يدعى السعادة،

وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها.  
ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها  
وسكوتها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف  
والشعور بذلك الاجتياح العميق...

## أنا والطفل

هناك بعيداً عن المدينة وضوضائها، في الطريق المؤدية إلى قصر كان بالأمس للخدّيو اسماعيل ولم يعد له، على شط معبود المصريين ومرضع سهول إيزيس -، على شط النيل النائح في سيره على رفات العذارى المبعثر في أعماقه - هناك روضة غناء مفتوحة لجميع الداخلين وقد حفظ جوها أحلام زائريها المتأملين.

قصدت إلى الحديقة في صباح يوم منير. نبذت عني عادات المدنية فافتترشت الثرى كما يفترش سكان البادية رمال الصحراء، وتمددت على العشب الأخضر في فيء شجيرة عند قدمي أحد التماثيل المنصوبة هنالك.

لم أرَ حولي سوى سيدتين انجليزيتين مع احدهما ثلاثة أطفال. وإن هي إلا دقائق حتى اقترب مني أحد هؤلاء، وهو صبي في الرابعة من سنواته. فناديته قائلة «تعال إليّ أيها الصغير!».

فدنا واجفأً باسمأً، فسألته: «ألا تجلس على ركبتي؟»  
فجلس صامتاً.

ولما شعرت بثقل جسده الصغير ذكرت أخي الوحيد  
الميت، ووثب قلبي إلى شفتيّ وجالت الدموع بين أجفاني  
فملت إلى الطفل امتص من حلاوة وجنته، لاهية بتلك القبلة  
عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي كما يتصاعد الغيم من أطراف  
البحار.

ما أعذب قبلة الأطفال، وما أطيب طعم ابتسامهم!

ثم سألت الطفل: «ما اسمك؟».

قال: «روبرت».

نظرت في وجهه فإذا به آية من آيات الجمال الإنجليزي:  
وجهٌ شفاف كأنما هو عصير ورد وياسمين تجمد فُنُجَتْ وجهاً  
بشرياً. وفم كزّر الورد لطفأً وانكماشاً. وجبهة كبيرة عالية  
يخفيها شعر ذهبي مسدول عليها. وعينان لهما زرقة عميقة  
كزرقة البحار بعيد الغروب، وهما كبعض العيون الانجليزية  
في جمودهما الظاهري وحرارتهما الخفية وحلاوتهما وتلاعبهما.  
نظرت في جميع هذه الملامح متمعنة، فقلت للطفل: «من أين  
أتيت بعينيك، يا روبرت، ومن أعطاك زرقتهم؟».

أجاب، ولم يفهم غير كلمتي «من أعطاك»:

- «ماما» .

قلت: «قرّت عيننا أمك بك! وأي عمل يعمل أبوك؟»

قال: ولثغاته اللطيفة تتدحرج على لسانه متعثرة بشفتيه:

- «بابا ضابط. وأنا عسكري مثل بابا».

قلت: «أنت جميل وأنا أحبك يا روبرت. هات يدك».

قال: «Yes, Thank you»

يد الأطفال عجيبة حلوة كابتسامتهم. أخذت يد روبرت  
أقرأ فيها ما خطته يد الأقدار. يدٌ مربعة كبيرة الابهام وفيها  
كل من خطوط الحياة والعقل والقلب واضح جلي، وتل المريخ  
يرتفع في تلك الكف الصغيرة متهدداً متواعداً...

فنظرت إليه وخاطبته همساً:

-«هذه اليد التي تنقل اشاراتها اليوم ما حفظته من  
إشارات الملائكة، هذه اليد التي لا تمتد إلا للداعبة الندى  
ولس الأزاهير، هذه اليد الصغيرة الطرية سوف تصير يد  
جندي، سوف تقبض على السيف والحربة وتطلق النيران من  
أفواه المدافع، سوف تفتك بحياة البشر أشراراً كانوا أم  
أبراراً...»

قال روبرت وهو يضرب أديم الحديقة بقدميه:

- «أنا عسكري مثل بابا؟»

قلت: «نعم يا روبرت، عندما تبلغ سن التجند تصبح جندياً. وستكون جميلاً في ثوبك العسكري، ستكون جميلاً جداً، لكن أقل جمالاً منك اليوم وأنت بأثواب الطفولة. سوف تبسم لك النساء لأنهن يملن إلى الجنود، ومُذهَّب الأكمام والصدور يسير بهنّ إلى عالم الأحلام. وهذه اليد الصغيرة الضعيفة سوف تكون كبيرة قادرة تؤلم وتشقي وتميت، سوف تلمس آلات التدمير والهلاك بعزم وثبات! وعيناك الجميلتان سوف تكونان عيني جلاد يرى الدماء والدموع دون أن يلين أو يرحم... وقلبك، ترى كيف يكون قلبك الذي لا يدرك اليوم ولا يشعر إلا قليلاً...؟»

«أنتكون من الكثيرين الذين لا يحسبون للعواطف في الحياة حساباً، فيلعبون ويضحكون ويتمتعون ويحزنون دون استبقاء أثر لما يختبرون، بل تمرّ الأفراح والأفراح على نفوسهم كما تسقط دموع الغيوم على صفحة الزجاج فلا تترك عليها سوى ما لا يلبث أن يزول... أم تكون من أولئك الذين يشعرون بقوة وحدة ويتظاهرون بعكس ذلك كبراً وخجلاً؟... هل تضربك يوماً يد امرأة فتضع في عينيك للحب دموعاً وتعتمد في فؤادك من اليأس خنجراً؟»

«غداً، يا روبرت، تنمو جسداً ونفساً، غداً تقف على



أحوال البشر فتجد ذاتك وحيداً في معترك الحياة، غداً تعذبك المسؤولية وتضنيك المجاهدة، ويلذعك هيب الفكر وتذيقك نار الهيام. غداً تذوق ظمأ الروح. غداً تصير إنساناً، يا لهول الكلمة! غداً تصير إنساناً أي حيواناً والهاً معاً! . . . صمتٌ طويلاً.

وفي ذلك الهدوء الشامل في حضن الطبيعة تصاعدت نعمة حلوة من أطراف الحديقة وانتشر تموجها على أنفاس الأزهار: وكان ذلك صوت المؤذن يردد في الظهيرة ما أنشده في الفجر وما سيعيده عند الغروب.

فسألت: «هل سمعت الصوت، يا روبرت؟».

أجاب: «Yes».

قلت: «عما قريب تعرف ما هي الميثولوجية، وما هي النصرانية، وما هو الاسلام. عما قريب تفهم ما هو التعصب الديني والجنسي والعلمي والعائلي والفردى. عما قريب تعلم أن الأنسجة التي تحاط منها أثواب العرس تصنع منها أكفان الشهداء. عما قريب ترى الأقوام يفتكون بالأقوام لأنهم محتشدون حول قطعة نسيج صبغت بلون غير لون نسيجهم. عما قريب ترى كل هذا، يا روبرت، وتشارك فيه لأنك عسكري مثل بابا!».

\* \* \*

انفصلت عن روبرت بلا قبلة ولا تحية. أنا لم أقبله لأنني  
وقفت متهيبة أمام رجل الغد منه. وهو لم يقبلني لأنني لم أعطه  
, كعكاً ولا حلواء...

## بَيْنَ عَامَيْنِ

بين شطّي الماضي والمستقبل يجري نهر الحياة ثملاً بعقيقه  
الفخم، ليصب في بحر الأبدية حيث لا جديد ولا قديم؛  
وخيالات البشر تتهادى بين جماجم الموت وأغراس الحياة مخفية  
طي ضلوعها كثيراً من الآمال وكثيراً من الكلوم.

فإلى بحر الأبدية، أيها العام الراحل!

وأنت أيها العام الجديد، إلينا!

\* \* \*

وطئت الأرض طفلاً جميلاً، فنبهت في قلوب الشيوخ  
الحنان وكنت صلة حب بين أرواح الخالصان.

امتزجت نسيماتك بدقائق الأثير فأصبح مغرداً لامعاً،  
وامتشقت حسام الصبح ضارباً أعناق جيوش الظلام فسالت  
منها الدماء في المشرق وملأت كتائب النور الأرض والسماء.

وداست أعقابك على هام الأيام فأفنت قديمها وغدا اليأس  
أملًا والنواح تهليلًا.

هي الإنسانية طفلة في هرمها كلما ذقت عذاباً رجت  
حظاً، ولئن مزقت أحشاءها الضغائن والأحقاد فموجات الحب  
العظيم ما برحت غامرة فؤادها.

فاسمع هتافها متخللاً أصوات الصباح: رحماك، أيها  
العام، رحماك!

لقد كتبت اسمك يد الزمان على باب الوجود، فساعدنا  
لننقش أسماءنا على باب السعادة!

كنا بالأمس نلمس الأوتار فتسيل عليها الدموع مرخية  
قواها، فما تسمعنا سوى شكوى المذلة وأنين العبودية. أما  
اليوم فنريد أن ننعش أرواح العידان لنوقع أسمى المبادئ  
على أعذب الألحان.

رحماك أيها العام الجديد، الإنسانية تتألم فافرق بها!

\* \* \*

رحماك، أيها الطفل الحبيب!

تعال نعطك القبلات السنوية الثلاث: فعلى جبهتك قبلة

الرجاء، وعلى ابتسامتك قبلة الوداد، وعلى يديك قبلة  
الالتماس والتوسل.

جبهتك مستودع الأفكار، وابتسامتك عبير الأزهار،  
ويداك رمز القوة المنتقلة أبدية من أدهار إلى أدهار.

هذه أمانينا نلقي بها عند قدميك فلا تدسها فتلاشنا بل  
ضمها إليك فتحيينا.

## نَشِيد نَهْر الصَّفَا

عين زحلتنا قرية لطيفة يعرفها الذين اعتادوا الاصطياف في  
جبال لبنان، وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي  
تحيط بها، وأجل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفق عند  
قدم الجبل، وعلى بعد أمتار قليلة منه يركن نهر القاعة .

كل من النهرين يسرد حكايته الأبدية على الأشجار المصغية  
إليهما بحللهما السندسية . ويظل النهران في اندفاع وشكوى،  
وروح الوادي تثن في أثرهما إلى أن تلثم مياههما مياه البحر  
العظيم .

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرات الأثير؛

هنا اجتمعت بلابل ارفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات  
القلب الكسير؛

هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية، وتحوّلت الورود إلى  
أشعةٍ سحرية؛

هنا اغتسل قوس قزح؛ فترك في الماء من ألوانه ألحاناً  
فضية؛

ومن دماء الأحلام المتجمدة استخراج قوس قزح ألوانه  
السرمدية؛

هنا بعث بأسراره إلى الأرض مع خيوط من الأثير ذهبية؛  
هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات المياه، فامتزج النور  
بالظلام وتلاشت اليقظة بالنام؛

هنا ناحت حمام الشعر وغنت أطياف الأنغام؛

هنا لثمت النسيم شوقاً وهياماً؛

ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام؛

وجمود الشاطئ حقدٌ على فتور الليالي ومعاكسات الأيام؛

هنا ارتعاش الأوراق على الغصون تحية همت من مقل  
الكواكب وسلام وتمثيل الأفنان ودلاها نجوى ملك الوحي  
والالهام؛

هنا ليلة أنوار وفجر ظلام وألغاز ملامس وألوان وأنغام.

حينما يمر الفجر على قمم الجبال يرى صورته في هذه  
المرآة البلورية يرى رمز الشبية مع ما يتبعها من الآمال النضرة  
كالأزهار، والميول المتنقلة كالأطياف. ثم يأتي الغروب ساكباً في  
أعماقها مرارة أحزانه مع ما يرافقها من النظرات المتحولة،

والابتسامات المتغيبة، والجباه الكثيبة، والشفاه المتحركة  
بالصلوات، الساكنة بالتأملات.

هنا عيدان الأشجان تبكي، تبكي بقلب جريح. وفي كل  
لحظة يخيل أنها تسلم نفسها الأخير بشهيق فيه من اللوعة  
والكتمان والتجلد بقدر ما فيه من المجد والعظمة، من البسالة  
وعزة النفس الأبية.

لكن المياه لا تموت ولا تحيا، بل تعيد ذكرى الماضي  
وتهمس بنبوءها في المستقبل، وتكرر أصوات الأفراح وتردد  
آهات الأتراح.

هنا لغز من الغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان. وأنا لغز  
أمام هذه اللغز، وليلة ازاء هذه الليلة. أهيم وحيدة على  
الشاطئ الحزين، انظر ولا أرى، اسمع ولا أفهم، أبحث  
ولا أجد، استعلم ولا أعلم... فؤادي يخفق مع فؤاد النهر  
الخفي، ونفسي قيثاره الأحلام والالخان. لكني لغز حي تائه  
في ظل الغصون، ينظر مستفسراً إلى لغز آخر فلا يجد فيه إلا  
صورته، فيود تمزيقها وسحقها وإن أحبها!

\* \* \*

عند احتضار النهار ذهبت إلى رأس النبع وجلست على  
صخرة قائمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة



الكبيرة. جلست وأرواح الخيال تنشق الأريج العطري المعانق  
شعور بنات المياه. وآلهة الألوهية الأربع يتلاعبون بدقائق  
الشفق سابحين على أمواج الظلام. وحول اشباحهم تلتف  
أكاليل البنفسج وقلائد الياسمين، وفي ثغورهم يللمع فتيت  
النجوم، بينا أبكار الشعر تسر لأخواتها خفايا اليأس والرجاء  
تحت أشجار الصنوبر، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد  
«باخوس» خمراً تسكر به الآلهة. ومن سكر الآلهة يولد الشعراء  
والأنبياء.

وعلى هذه الصخرة حيث أنا أحلم ثملة بما شربته  
مشاعري من رحيق الخيال العلوي، كان يجلس الأمير بشير  
الشهابي الكبير. كثيرون بعده وقبله جلسوا هنا وفؤاد كل منهم  
منقبض تهيئاً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود.  
وما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الأفكار  
تشابه في المصدر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها، والרגائب  
الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية هي هي في كل آن  
ومكان.

جميعنا طرح السؤال الذي القيه الآن على المياه  
المتراكضة: هو سر الأسرار الغامضة الذي يرجعه صدى  
الهياكل المشادة في قدس أقداس البشرية: من أين وإلى أين؟  
من أين وإلى أين؟؟

من أين تأتين أيتها المياه وإلى أين تذهبين؟

من أين أتينا وإلى أين نذهب؟...

المياه تتدفق إثر المياه مهللة مكبرة، وقد رفعت أصواتها في  
الغناء والنحيب، ودمدمت العناصر فيها أسرار الفيض  
الإلهي، ورفرفت على جوانبها أجنحة الخلود...

من أين وإلى أين...؟

ثقل دماغي بأفكار لا أدركها. وضاق مني الصدر لهوموم  
لا أعرف ماهيتها، فنزعت عن ساعدي ساعة وضعت في  
أسورة ذهبية ونظرت إليها قائلة: - «أيتها الساعة! أنت رمز  
الوقت الجاري في نهر الزمان فيسير قاصداً بحر الأبدية. ها أنا  
أغطسك في هذه المياه... عسى أن تحفظني في حياتك  
المعدنية أثراً لرموز معنوية». ثم جمعت بعض الحصى الملونة  
الجميلة الراكدة في أعماق النهر، قائلة: «أيتها الجواهر!  
سأحملك معي إلى وادي النيل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي  
تلاطمت في فؤادي أمام نهر الصفا.. أنت ذكر الأبدية التي  
حيثُ فيها لحظة».

وإذ رفعت عيني إلى الأفق رأيت مقلة الزهرة ترقب يد  
ملك الظلام الراسمة على رداء الليل صور الهيثات السماوية.

فغادرت رأس النبع مرددة: أنهر الصفا! من وأين وإلى  
أين؟

\* \* \*

أنهر الصفا! جئتكَ تعبـة الروح والجسد معاً.

قرأت خلاصة الأحوال الحاضرة فدوى في مخيلتي هدير  
المدافع، وتمثلت لناظري صور الحرب المخيفة. ثم قصدت  
الاجتماعات فملأ أذني ضجيجها التافه، وضجرت نفسي من  
معانيها السطحية ومراميها الخبيثة. عجبت لبلاهة الانسان  
وركاكة ميوله وفثور همته. إذ ذاك سمعت اسمك الموسيقي  
فأحبيته لأن فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً.

لقد أحرقت قدميَّ الرمال الحارة، ومزقت يديَّ أشواك  
الحياة، فجئت أستخلص من أعشابك بلسماً لجروحي. تعلق  
بأهدابي غبارُ المادة محاولاً إخفاء الجمال المعنوي عن عينيَّ،  
فأتيت أغسل أهدابي بمياهك المقدسة.

جئت لأرطب يديَّ وعينيَّ برضابك العذب.

ثقلُ فؤادي عليَّ، فأسرعت لأبعث به معك إلى روح  
البحر العظيم الذي يناديك من عمق أعماق زرقته البعيدة.

أنت ابن الغيوم، وألعبوبة الحرارة الهوائية، وضحكة المادة  
الدائمة، وقهقهة الجو بين الهضاب والأودية. أنت قبلة

الشمس للبحر. أنت أنشودة الجبل في الوادي. أنت الروح الصغيرة المسرعة إلى أحضان الروح الكبيرة.

أنت عميق كأسرار الجنان، عذبٌ كنظرات الوهان، وفي اسمك ألوان وألحان.

أنت تهلم<sup>(١)</sup> بي، أيها النهر، فخذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها، خذني معك... لكن، ما هي نسبيتي إليك؟

أنت مجموع سوائل لا وجدان لها، ولا قلب يخفق بين أجزائها. وأنا... أنا شيء آخر. أنت لغز بين البحار والآفاق، وأنا لغز بين الحياة واللا نهاية. أنا أعرف أني لا أفهمك، وأشعر بجهل الانسان وشقائه، أما أنت... ما لنا ولك؟

سيرى، أيتها المياه، سيرى واطركيني. اسقي النباتات والأعشاب، ضعي لآلىء في ثغور الورد، رطبي صدر الأرض الملهب، ترغمي في وحدة الوادي، أسردي حكايتك التي لا تنتهي أندبي هليلي، اصرخي همسي، أنشدي انجبي، اطربي احزني، كل هذا ننسبه إليك. نحن أبناء النشوة والكآبة. سيرى. أيتها المياه. ودعيني أبكي. لقد تلبد جو فكري بالغيوم القاتمة. وقلبي - ما لك وله! - منفرد حزين...

---

(١) تهلم: ملهم دعاه قائلاً له: هلم.

## الساعة المفقورة

جعلها أرباب التجارة حلية نسائية وأتقن الجوهري  
وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشراء.

صورة مصغرة للكون، كذلك كانت ساعتني: مساحتها  
رمز للفضاء، دورتها مسرح اللانهاية، حدودها حدود  
اللامكان، علامتها مقاطع الوقت الذي رتبته الانسان، ساعاتها  
مقياس الأعمال، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب  
لوفود الآمال، ثوانيتها دقات القلب... من الثواني يتألف  
الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجاً.

فيا هول ثواني الزمان! ويا هول نبضات قلب الانسان!  
بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى: الماء والنار،  
فتميد الأرض بمن عليها وتتفطر أساساتها فتقذف البراكين  
مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية، وتزفر الطبيعة زفرتها  
القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة

فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً.

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء، وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح. ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتتنصب عروش، تدمر ممالك ويعمر سواها، تخرب مدائن ويشاد غيرها، يتجندل أفراد وتفى مجاميع فترتدي الأقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة فقدان وسواد الأحزان.

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس، تبتسم شفة وتدمع عين، يخون صديق ويخلص عدو، بين الثانية والثانية!

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار. دماء منبثة إلى القلب ودماء منبثة منه، تتهافت عليه جرائم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أسس العمر، وانفعالات تشخص لمروها ذرات الكيان. اشتعال الفكر وخمود العاطفة، ظفر البلاهة وتقهرق النبوغ، لذعات الغرام والحسرات العظام، قنوط ورجاء، سعادة وشقاء، هتاف الروح المسلمة ولهاث الروح المودعة.

\* \* \*

يا ابنة أبيك! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم

الصفاء، وهجرنا حين اللقاء: فأنت غادرة خائنة هاجرة  
كالزمان، يا ابنة الزمان!

كم من ساعٍ طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربك  
وفكري يناجيك بأحاديث هداة وضلالة! ابتسم لك عند  
السرور فأتحيلك صامته تبسمين، وأتهد حيالك يوم الأسى  
فأحسبك تتنهدين وتحزنين، وكأن عقربك ذراعان يمتدان نحو  
العلاء مستغيثين متوسلين.

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بك على ساعدي  
قائلة «أنت الصديقة التي لا تخون». ولما مزقت سمعي  
أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية، خاطبتك قائلة «أنت لا  
تؤذين لأنك لا تتكلمين». ولما اذابني الجهل بدعواه والغرور  
بسخافته، نظرت إليك قائلة «أنت عالمة لذلك تصمتين».  
وكنت تعزيتي،

وكنت زماني، يا ابنة الزمان!

وعلى هذا ما كان أطول اعراضك عني وأقل اهتمامك  
بي! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك  
وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة التلطيف. وفي المساء كنت  
تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية الحان  
أحلامي وآمالي، وفي المساء كنت أول عين أشاهدها وأول  
روح استجوبها.

كل ذلك وأنت لا تتبهين .

وها قد هجرتني ، فقدتك وفقدتني فسيري بحراسة الله  
وانسيني !

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقها !

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤدي أخطأه ،  
فانقلبي أفعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمك حتى  
تصرعيه قتيلًا .

... لكن لا ! لا ، ليس الأشرار إلا ضحايا البشر  
وضحايا نفوسهم لو كنت تعلمين . وهم أخلق بالرحمة من  
الأخيار الصالحين . فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً ، بل  
غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير صالح  
لتكوني نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيني يداً شوهت  
خشونة الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال  
القبلة والتعجب ! نامي هناك وأسعدي ، ولو ساعة ، قلباً بائساً  
بحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

إن كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة ،  
اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات ، اذكري  
واحفظي ما تعرفين .



ولكن ألسنت ابنة الزمان الذي ننسب إليه في ضعفنا كل شيء، وهو في قوته لا يبالي بشيء؟ ترى بأي حافظة تذكرين، وبأي ذهن تتأملين؟ إنما علامتك مداد قد تحجر، وعقربك اصبع يشير إلى علامة يجهل منها المعنى، وأنت آلة ليس إلا، وإن كنت آلة الآلات المثلّية.

أنت ابنة الزمان الناسي،

وأنت مثله لا تذكرين!

## يَا سَيِّدَةَ الْبَحَارِ

أسمعت ما طيرته عنك البروق وما قالته فيك الأنباء؟  
لوزيتانيا! أبلغك ما بلغنا وتعرفت ما يكتبون؟

قولي!

أتمردت أرواح الكهرباء في الفضاء وثارَت قوات العناصر  
في أعماق السماء! أم هجمت أسد البحر على الأسلاك  
الممدودة تحت الماء طالبة من معارف البشر لداء خفي شافي  
الدواء؟

قولي! أسمعت بما اذاعته عنك الأنباء؟

لوزيتانيا، أجيبني!

أنت التي خضعت لها رقاب الأمواج أعواماً، ولثمت المياه  
موطىء قدمها شهوراً وأياماً، أنت التي ذاب لحر أنفاسها جليد  
البحار القاصيات وابتسمت لقدموها شمس السواحل  
الدانيات، أيتها الهازئة بهيجان العواصف، وثورات اللجج،

وغضب البراكين، يا صلة العمران النشيطة بين العالمين!

يقال إنك غارقة يا ذات الدلال السائر، ويزداع إنك  
مندحرة يا قاهرة العنصر القاهر، أصبح ما يقولون وما هم  
مذيعون؟ تقعين صريعة نيران الجبار العنيد؟ تتضاءل منك  
القوى ازاء بطشه فيذوب منك حتى صلب الحديد؟

أنت التي قطعت المسافات الشاسعات ببسالة باسمه  
وملأت وحشة البحار الواسعات بزفرات الإنسان وأصواته،  
أنت الأملة بكل شيء لأنك يائسة من كل شيء، أيتها المرأة  
المتنمرة، كيف لم تجيبي على صواعق الانسان بصواعقك  
المتنقمة؟

ألا تذكرين يوم غادرت العالم الجديد تحملين للأجسام  
طعاماً وتنقلين للنفوس غذاءً، وتمثال الحرية يحبك بقبسه  
المحيي ويتمنى لك سفرأ سعيداً؟ يوم شيعتك أنظار وقلوب  
وقد أودعتك أموالاً وأسراراً وأرواحاً غاليات، ألا تذكرين؟  
كيف لم تصوني وديعتك سائرة بها إلى مرفأ الأمان سالمة؟ كيف  
لم تحرصي على ما ضمنت إلى قلبك، أيتها العاشقة الصامتة؟

لوزيتانيا! لوزيتانيا! لقد ذقت رعشة الموت، يا ضحية  
الحياة! وعرفت معنى الأبدية، يا أثر الفكر الزمني!

في أحضان المياه الدامسة حيث لا شمس ولا كواكب

ولا أقمار، حيث يتموج من العناصر الاسوداد والاخضرار،  
حيث لا كلام سوى دمدمة العواصف الهائجة على صفحة  
الماء، ولا صوت غير صدى الصواعق المنبثقة من جبين الأفق  
لتخترق وجنة الغبراء؛ حيث تمر أفكار البشر على الأسلاك  
البحرية صامتة؛ حيث لا أنين ولا نواح ولا إنشاد، في  
أحضان المياه الغدافية<sup>(١)</sup>، في الهاوية المرعبة هناك تندثرين،  
تندثرين في كهوف نبتون السائلة وفيها متلاشية تقطين. هناك  
تحتضنين وديعتك التي لم تستطيعي صيانتها في الحياة فتكونين  
في الردى لها من الصائنين.

هل من دمعة تصل إليك مخترقة مياه البحار؟ هل من  
قبلة تهبط نحوك مداعبة ما لديك من الأسرار؟ لكن قد كفناك  
السكوت الدائم والجمود المتحرك الذي لا قبلات لديه ولا  
دعابة ولا عبرات.

لوزيتانيا! لوزيتانيا!

سوف ينتقم لك البشر من البشر، سوف يقيم التاريخ  
لك ولأخواتك جميل الآثار، سوف تنظم لك الأناشيد ويعزف  
لذكرك طروب الآلات.

وإذا سئلت في أعماق الهاوية عن الانسان الذي ابدعك

---

(١) الشديدة الظلمة

واستخدمك قولي إنه ما زال كبير المطامع موفور الغرور، إنه  
في غروره قد أحبك وبكاك. وإذا سألتك روح الهاوية  
مذهولة: إذاً كيف فتك بك؟ أجيبني بما يقولونه في ربوعنا من  
أن الذي قضى عليك ليس التحالف الملقب بالانساني، بل  
المبشاش المنعوت بالجرماني...

## بُكاءُ الطفل

سمعت الطفل يضحك فاختلفت روعي الأثيرية في  
جسدي التراي. إن صوت هذا الرضيع ليرجع صدى أصوات  
الملائكة، وضحكته البريئة المطربة لتحث المفكر على اكتناه  
الأسرار الأزلية الغامضة.

ثم سمعت الطفل يبكي فهلح قلبي فرقاً وشعرت بشيء  
كبير يذوب فيه. أواه من بكاء الأطفال، إنه أشد إيلاماً من  
بكاء الرجال!

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تتحدر على وجنتيه  
الورديتين، فكانت تلك اللآلئ الذائبة جمرات نار تكويني.

ظل الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه  
الوسيم. ظل يبكي بكاءً متروكاً منفرداً لا يحبه في الدنيا أحد.  
الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيد التألق إلى عينيه؟ كيف  
أسمع في ضحكته صدى أصوات الملائكة مرة أخرى؟

\* \* \*

فدنوت منه متوسلة،

وضممته إليّ بذراعي التي لم تضم يوماً أماً أو أختاً  
صغيرة، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى الأطفال  
الغرباء، ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف  
كأنما هي تلمس شيئاً مقدساً.

... ثم وضعت على تلك الجهة شفتي ساكنة في قبلة  
كل ما يحوم في جناحي من شفقة وانعطاف. ترى من ذا ينبه  
الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكي؟

صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحاً تناجي روحه.  
صمت هنيهة، ثم عاد فحلق في بعينين ملؤهما الحزن  
والتعنيف معاً. أتعرفون كيف تحزن عيون الأطفال؟ أتعلمون  
كيف تعنف أحداق الصغار؟ حلق في سائلاً عن أعز عزيز  
لديه، وقال بصوت هادئ كأصوات الحكماء: ماما، ماما \*

\* \* \*

صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين، يا أم الصغيرة؟ لست  
بالعيلة لأنني رأيتك منذ حين تيسين بقدرك تحت قبعتك،  
والجواهر تطوق العنق منك. أنت صحيحة الجسم، فلماذا لا  
تسرعين؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين؟ ألا يوجعك  
الشهيق الذي لا تسمعين؟

عودي من نزهاتك الطويلة، وزياراتك العديدة،  
وأحاديثك السخيفة، عودي واركعي أمام الصغير واستمعيه  
عفواً.

لقد خلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء، وكيفتك الطبيعة  
أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة.

تعالى اسجدي أمام السرير، سرير الصغير!

اسجدي أمام هذا المهد الذي لعبت بين ستائره طفلة،  
وحلمت به فتاة، وانتظرت زوجه، فما خجلت ان تهمله أماً.

اسجدي أمام المهد فإن المهد محبتك القصوى!

اسجدي أمام السرير، ولا تدعي رب السرير يبكي لثلا  
تملأ قلبه مرارة الوحدة، حتى إذا ما شب رجلاً تحولت المرارة  
كرهاً وصرامة.

اسجدي أمام السرير وناغي الصغير! إن دموع الأطفال  
لأشد إيلاماً من دموع الرجال.



## رَمَعَتِ عَلَى الْمَغْرَدِ الصَّامِتِ

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود، وما أتعس القلوب  
الشديدة التأثر!

يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتشقق بوطئه  
جلابيبها وتنتثر وريقاتها. كذلك تكفي ملامسة الألم النفس  
المنفردة ليثير منها الأشجان ويستقطر من محاجرها العبرات.

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر، ومن  
النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر.

أما أنا فلا هذه العطايا تغرني ولا تلك المواهب  
تستهويني. شيء واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك  
في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب. شيء  
واحد ينبه إعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا -  
هو زهرة نادرة المثال، شمس الذكاء والمعرفة تحييها، ومياه  
العواطف العذبة ترويحها.

ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح في  
ثنياته!

\* \* \*

طائر صغير نسجت أشعة الشمس ذهب جناحيه وانحنى  
الليل عليه فترك من سواده قبلة في عينيه. ثم سقطت عليه يد  
البشر فضيقت دائرة فضائه وسجته في قفص كان عشه في  
حياته ونعشه في مماته.

طائر صغير أحبته شهوراً طوالاً. غرد لكآبتي فأطربها،  
ناجى وحشتي فأنسها، غنى لقلبي فأرقصه، ونادم وحدتي  
فملأها الحاناً.

امتزج ذكره بحياتي فحل عندي محل صديق لا تصلني به  
اللغة ولا يقربه مني التفاهم الروحي، بل يعززه إليّ حضوره  
الدائم وإن لم يبال هو بحضوري، وصوته الرخيم وإن لم يغرد  
إلا لأن التغريد من طبعه، وسروره الذي لا يعرف الكآبة،  
واضطباره على ضيق الفضاء وقناعته بما قدر له من النور  
والهواء.

لما ابكتني الآلام أريته مندلي مبللاً بالدموع فأعرض  
عني. إنما تستدر الدموع ظلمة الأحزان كما يستدر الندى ظلام  
الليل، وروح الأطيّار شعاع مغرد فكيف يتفهم النور الظلام؟

ثم أشرت بيدي إلى الأثير البعيد لعلّي أرى من طائري  
 زفرة تنبثني عن لوعة في قلبه. ولكنه أخذ يتنقل على قضبان  
 قفصه غير مبال بي، كمن يقول: «النور لا ينظر إلى الشمس  
 والقلب لا يحدق في الروح لأن كليهما واحد. أنا لا أنظر إلى  
 الأثير لأن في نقطة منه. إني فيه وإن بعدت عنه. كالشاعر  
 الذي يظل ملحقاً في سماء الخيال والمعاني وأن وثق الناس من  
 أنه يجالسهم مصغياً إلى أحاديثهم».

وإذا أتيت بالأزهار نازعة عنها وريقاتها فارشة بها مهبط  
 القفص لعلّي أرضيه، شرع يدوسها استخفافاً متابعاً تغريده.  
 كأنه فيلسوف لا يكثرث للصغائر وإن جملت منها المظاهر، ولا  
 يهتم إلا بما ينبه قوى البحث والتفكير في جنانه.

في الصباح كنت أفتح عيني فيستقبل استيقاظي بالغناء  
 وتسيل موسيقى أنغامه على قلبي فتذيبه وتسكره معاً.

وفي النهار كنت أجلس للدرس والتجوير فتشمئز نفسي  
 أحياناً من عبوس الكتب، ويثقل يراعي في يدي كأنه صولجان  
 تنازل عن ملكه، فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد، وتأتي  
 جماعة طير من الخارج فتتوحد التغاريد عند نافذتي كما تمتزج  
 الألحان في قلب الأمواج. إذ ذاك تبسم الأفكار على صفحات  
 الكتب أمام ناظري، ويتمايل قلبي تمايل الصفصاف قرب  
 الغدير وتنجلي الغيوم عن صفحات نفسي وتطرب روعي.

وفي المساء كان الكنار يصمت إجلالاً لقداسة الظلام  
فيخفي رأسه بين جناحيه، ويحمد جمود المفكر. ساعتئذ تأتي  
بنات خيالي محلولة الشعر وورد الابتسام منور على شفثيها  
ومصباح الشعر متقد في يمينها. فتعقد حلقة وتدور راقصة  
حول أحلامي ومنشدة أناشيدها بألحان سرية كأعماق اللجج،  
أناشيد. عجيبة لم يسمعها إلا خيال روعي التهادي بين أولئك  
العذارى الراقصات. ولم أفهمها إلا بحاسة سادسة تنبثق في  
قلب الشاعر في ساعات الوحدة والكآبة. بينا ملوك الجوزاء  
تطل في أعالي علاها ناظرة إليّ من نافذتي المفتوحة على آفاق  
الليل، والكنار يرقبني بعينيه المخفيتين تحت جناحيه الذهبيين.

\* \* \*

والآن أنظر إلى القفص!

لقد صمت الطائر المغني، وجمد الشعاع المحيي، فلا ترى  
في القفص إلا قليلاً من الشمس المائتة!

مات الصغير الغريد، مات صغير حشاشتي!

مات عند بزوغ الفجر وقبل انقضاء الربيع، ولا يبقى في  
خاطري إلا أثر من ذلك اللحن المتواضع البديع. شعاع  
ذهبي أطل حيناً واختفى في كبد الآفاق، ابتسامة لطف  
أشرقت، وما لبثت أن توارت في أخفية الظلام.

نور فكر ضياء ثم اضمحل في لجج العدم، وردة أثير  
تنفست فعطرت وأسكرت. ثم ذبلت.

نغمة حب تموجت ساعة، ثم تلاشت في هاوية السكينة،  
صديق صغير غرد فأطربني، وسكن في جوارى فأنسني،  
ولما مزق قلبي العالم بشره وصغائره غنى طائري فأنساني قبح  
القباحة وجعلني أفكر في كل حسن بهي.

هذه قيئارتي فقدت أحد أوتارها فناحت بلابل أنغامها،  
فما أتعس القلوب الشديدة التأثير! وما أمر الجرح الصغير  
الذي يفتح جراحات كبيرات!

\* \* \*

سر الوجود وسر الفناء من يستطيع اكتناهما؟  
في كل ذرة من ذرات الكون ظمأ لارتواء خمرة الحياة،  
وشوق مبرح للنمو وبلوغ أكمل الحالات الممكنة. فما غاية  
هذا الشوق، ولماذا وجد ذلك الظمأ، إذا كان الفناء كعبة  
الكمال ونهايته؟

أتلاشى ما كان في طائري من أنس وإيناس؟ أضاعت  
نفسه الصغيرة الحلوة في الأثير كما امتزجت تغاريد بأمواج  
الهواء وعناصر جسمه بالتراب والماء؟ أم هو يحفظ جوهر ذاتيته  
ويظل هو هو في مجاهل الفضاء؟

علام وجد ولماذا قضى؟

ألهذا الفناء ترقى نوعه حتى صار طائراً غريداً؟ أعاش يوماً وكان من نصيبي لكي يطربني ثم يوحشني، يزيل كآبة نفسي حيناً ثم يتركني حائرة في أمره وأمري؟

أين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض؟

وأنتم أيها الموق، أطيّاراً كنتم أم بشراً ، ألا تنطقون مرة واحدة لكي تفضوا إلينا بما طوي من الأسرار وراء حجب الردي؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلي السرمدي الكامن في ضمير الوجود؟

## نحو مرقص الحياه

... ولما انتهى دور الوقوف في الكوة وجدتني بين الجماهير ووجهتي مرقص الحياة، جاهلة من ذا يسيرني وإياهم وبأي دافع هم يسرون. فتناولني حيناً دوار الاختلاط بالجمع الكبير، إلا أن الشخصية العامة لم تستول عليّ فتغرق في قدرتها عجزي. بل بقيت أنا تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط العضلات والرزايا. ولم يفتأ ذلك الوحي المعبذب يهمس في سوريته، وذلك الاحتياج المتوهج يضرع في ناره. ففهمت أمراً آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الأليم والاستشهاد، وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الأيام...

## نحو مرقص الحياة

في ليل مسترخي السدول سرت على شط بحر الأيام مع  
السائرين. سرت نحو مرقص الحياة في ليلة غار نجمها وادهم  
ديجورها؛ على شط بحر الأيام سرت مع السائرين بين ما  
طمسته عصور وخلفته عصور وشادته عصور، على شط بحر  
الأيام سرت أتلمس سبيلاً قريب المنفذ نظيفاً أنيقاً، لئلا  
تلتطخ الأوحال نعلي الإغريقي الأبيض وتمزق السموم وريقات  
زهرة رأسي، زهرة الياسمين التي زنت بها رأسي.

أنوار المرقص هناك عيون تناديني، وفي كل من قدمي  
جناحان يحثانني على الرقص قبل الوصول. يا لطول الطريق  
المتشعبة في الدجى، يا لطول الطريق ويا هول الطريق! أليس  
من هادٍ يهديني بين جماهير السائرين؟

\* \* \*

جاءني خيال سائلاً وفي صوته لهجة المتأدب: إلى أين  
تقصدين؟



قلت: أرأيت القصر العظيم الذي تتهامس في صدره  
أسرار الألحان، ونوافذه ألحاظ أنوارٍ تنادييني، أرأيت القصر  
العظيم؟ إنما إليه أقصد لأنه مرقص الحياة.

قال: وما عملي إلا قيادة الناس إلى المرقص، قيادة من  
شاء من السائرين.

قلت مبتهجة: أصحيح ما أنت قائل؟ ومن أنت إذن  
لتفعل ما أنت فاعل؟

قال يقدم نفسه: أنا الغريب. أنا الغرباء. أنا التاجر  
والطبيب والمهندس والمحامي والنائب والحاكم. أنا العامل  
والخادم، والباني والهادم، وأنا المتهم والقاضي. أتعاطى جميع  
الحرف، وأعمل للناس وهم لي يعملون. أخدمهم في بابي  
ليكون كل منهم لي في بابه خادماً. أقدم لهم ما لا يحصلون  
عليه بدوني، وأعقد في ما بينهم بروابط لولاها ما تبودلت  
فائدة ولا اشترك في منفعة. أنا الغريب الذي تجعله المصلحة  
قريباً لكل غريب.

قلت: عرفتكَ يا سيدي. هذا سوارى أعطيكه فقدني  
نحو مرقص الحياة.

في مركبة الغريب سرت مسافة طويلة، قطعنا جبلاً  
وأودية لم أر منها الصعاب ولم تتعثر قدمي فيها بالصخور. وإذا

وصلنا سلسلة الأطواد المتساندات في حدود الأفق ودّعني  
الغريب لأن مركبته لا تستطيع المسير، ودّعني الغريب  
ومضى .

\* \* \*

دارُ المرقص اقتربتُ منها قليلاً ولكن بيني وبينها سلسلة  
الأطواد المتساندات. رأيتني وحدي، فلذعني البرد، وهذدتنني  
دياجير الأفاق، وشاكتني أشياء لم ألمسها بيدي. وإذا خيال  
يقرب متعمداً مما شاتي. فوقفت واجفة وسألت: من أنت  
الذي تعترضني في طريقي؟

أجاب وفي صوته شر واستهزاء مهين: من أنا؟ أنا  
الدياجير المهددة، وأنا الأشياء الشائكة في الظلام. أنا النميمة  
والاغتيال والوقاحة والشراسة والامتهان. أنا الشفة التي  
تبتسم هازئة لأن وراءها أنياباً تنهش نهشاً. أنا اليد التي  
تضرب لتثار بلا ثار. أنا القلب الذي يكظم الحقد والضعينة  
بسبب وبلا سبب. أنا الكيد والغيرة والخبث والحسد، وأنا  
الدم القبيح المختبئ وراء شهد التمليق وتكلف السكوت.  
أنا العدو. أنا الأعداء.

قلت مرتعشة: لعلك تعني سواي بهذا الكلام. أنا لا  
أكره أحداً، ولا أحقد على أحد، ولا أعداء لي. وإذا صدر

مني أذىً فإما عن سهو وإما عن سوء تفاهم، وأنا أول من يتألم له بعد حدوثه.

أجاب وقد تضخمت معاني البغض في صوته: بل إياك أعني، أنا عدوك أنت ولا أستطيع أن أكون لك إلا ذلك. عبثاً تتحاشين طريقي، وعبثاً تتبعين سبل الحذر والتحفظ. سوف أؤذيكَ بأصغر الأسلحة، وأوفرها اقتداراً، واحدها مضاء، وأبعدها عن منطقة العقوبة: اللسان.

وبينا كلماته تنقُصُ عليّ كالصواعق، توارى عني ففطنت لنفسي. فطنت لنفسي فوجدتني أقطع نفقاً ضاق منه الجو وثقل فيه ضغط الهواء، حتى خلته قبراً ملأته عقارب توجعني، وحيات تلسعني، وألسنة لهيب تكويني. سرتُ هائمة والعبرات متحجرات في أقاصي قلبي. ولما عثرتُ على منفذ أخرجني من النفق الرهيب وجدت تحمسي يأساً والأجنحة في قدمي أغلاًلاً. خلفت سلسلة الأطواد المتساندات ولم يبق بيني وبين المرقص إلا منبسطات السهول. عندئذ بكيت ثم مسحت دموعي المتسابقات لأفسح مجالاً لدموع جديديات. ثم قلت: ترى لأي شيء يوجد في الوجود شيء؟

\* \* \*

بلطف النسيم امتدَّت اليد إليّ. يدُ ترسل أناملها نوراً،

وتبعث من حركاتها حرارة تدفئ روعي . ولما أن أجفلتُ قال  
صاحب اليد: هاتي يدك .

فنظرتُ إلى الخيال قائلة: كفاني ما لقيت من الخيالات في  
طريقي . إني لا أطلب مساعدة أحد وقد عدلت عن الذهاب  
إلى المرقص، فدعني وحيدة في كآبتي، دعني في سآمتي وبآسي  
وحيدة .

قال - لا أستطيع أن أدعك هنا، ولا أنت تستطيعين إلا  
قبول مساعدتي .

قلت - كيف ذلك؟ ومن أنت؟

قال وكأن ابتسامات الملائكة قد تجمعت في صوته إخلاصاً  
وحلاوة - أنا الصديق . أنا ذاك الذي يشعر ويدرك ويفهم  
ويعلم . أنا ذاك الذي يعلم . أنا التعزية وموضع الثقة  
والأمان . أنا الصديق .

قلت - لا ثقة لي بأحد . وأنا لا أعرفك ولا أريد أن  
أعرفك .

قال - ارادتك وعكسها عندي سيان . هذه السهول لا  
يعرف خفاياها غيري . طريقك فيها وليس لك من دليل  
غيري . وعندي لك رسالة وقد جئت مرغماً لأبلغها إليك .

قلت - ممن هذه الرسالة وما هو مضمونها؟

قال - لا أدري. لقد دفعتها إليّ يد الخفاء وحجمها في نفسي يدلني على أنها ليست لي. ثم زاد وفي صوته الحاح وكتابة: خذها، هي لك! وستعلمين سرها ساعة تأخذينها وتناوليني رسالة أخرى لي عندك. كذلك قال لي الصوت المجهول الذي بعث بي إلى هذا المكان. خذي ما لك وأعطيني ما لي!

\* \* \*

إلى بحر الأيام حولت نظري طالبة إرشاداً. إلا أن صوت الأمواج متشابه لمن لا يسأل ولكن في أنة الأمواج لكل سائل جواباً. فارتفع الحباب قليلاً قليلاً ونمق لي الأمثلة بحروف فضية: «يقسم المرء الناس إلى غريب وعدو وصديق. فذاك يبتغي الدرهم متاجراً متأدياً، والآخر لا يظهر إلا معانداً معذباً منتقماً، وهذا يتكلم باسماً ودوداً فينطلق صوته وبسمته إلى سويداوات القلوب، ويستقر صوته وبسمته في سويداوات القلوب. وما كان كل من هؤلاء إلا مؤدباً مرشداً إلى سبل الحياة، وما كان كل منهم إلا استاذاً يدرس عليه ما لا يعلم من سواه، لأنه يحمل في يده رسالة خفية قد أوتن عليها من آلهة الغيب والأسرار».

\* \* \*

على شط بحر الأيام سرتُ مع السائرين. ومن منهل  
الغبطة المتدفق في سكبت تعزية. ومن الشمس المنيرة في جناني  
وزعت أنواراً على الذين معي من السائرين. وزعت من  
شمس جناني أنواراً ومن منهل غبطتي تعزية على المحزونين من  
السائرين.

## الذكرى الجديدة

أصبحت اليوم وبين يديّ ذكرى جديدة حارة تتصوّر  
وتتأوه وتتلو كالنفس المترددة بين البقاء والانتحار. وأخذتني  
منها شفقة فحملتها برأفة إلى معبد الأذكار القائم في أعماق  
روحي.

عبرت العتبة متأنية والتهيب يلاشي وقع خطواتي،  
وجثوت بين تذكارات متبحرات في شفق التأمل العميق حيث  
لكل ميت مضي اسم ولكل حدث انقضى رسم. فتقلصت  
التذكارات من ذواتهن الهيولية وحنون عليّ هامسات وقلن:  
«نحن فيك وأنت فينا».

فردّدت همسهن وقلت: «أنا فيكن وأنتن في». .  
ونهضت بالذكرى الجديدة أعين لها مستقرّاً فاستوت على  
متوسط المذبح، وأخذت أنسق أمامها طاقات الأزهار، وأنثر  
على جوانبها فرائد العطر والندى، وأوقد حولها الشموع  
والمصابيح وأذكي نار المجامر بالمر واللبنان، ثم وقفت أرقبها

بانشراح إذ رأيت الهدوء يباغت اضطرابها وتوجعها.

وفي النهاية مشيت متراجعة إلى المدخل. وبعد نظرة  
الوداع غادرت معبد الأذكار وبى ارتياح من أدى واجباً عزيزاً  
وفخر من أتى أمراً عظيماً.

\* \* \*

والآن ستتسارع الشهور حتى تنتظم أعواماً، وتتساند  
الأعوام حتى ترتب عقوداً، ويتقاذفني موج العمر فلا أعي  
يوماً إلا وأثر ذكري الخفي يبدو في جميع أعمالي.  
فإذا تكلمت واتخذ صوتي قراراً بعيداً كان متكلماً فيه  
صوت ذكري.

وإذا أخرجني موقف فأحجمت، فهممت، فأقدمت،  
فتجاوزته إلى غيره، كان الفضل لامثولة ألقته عليّ ذكري.  
وإذا سرت أحياناً بخطوات يخلن لتريشهن مفكراتٍ بأرض  
يطوينها، كان ذلك التباطؤ هوى من إهواء ذكري.

وإذا استفزني التحمس لمظلوم واستبسلت في الدفاع عن  
ذي حق فما ذلك إلا مكافحة لطغيان استدر الدموع والدماء  
من قلب ذكري.

ذكراي.



وإذا شعرت يوماً بزمهرير البحار المتجلدة يجاور في كياني  
تأجج الرمضاء المستعرة، وتلاطم بين جوانحي هبوب  
الصرصر بلوافح السموم، فما ذلك سوى ثورة جديدة تقوم بها  
عناصر ذكراي.

وإذا شمت خيرات العالم فقراً وازدحام العالم قفراً فلأن  
لا ائتناس ولا غنى في غير عالم تبدعه ذكراي.

وإذا رأني جليسي وناظراي يخترقانه إلى أبعاد شاسعات  
فلأني ألح بين طبقات السحب خيلاً من ذوي القربى  
لذكراي.

وإذا نما حبي بغتة واحتوى الموجودات بقوة كأن الروح  
الكلية اتخذته لحظة رسول عطفها على الخلائق فما ذلك إلا  
اختمار فطير ذكراي.

\* \* \*

وعندما أعود إلى منشأ الكائنات ومرجعها وأرقد بين  
جلال المدافن في قبري الضيق حيث تنقلب صورتى البشرية  
تراباً، فهباءً، وينحل ما ارتبط من اسمي الصغير فلا تمثل  
الميم منه والياء سوى حرفين من حروف الأبجدية فحسب،  
يومذاك سيكون التماسك والحياة نصيب ذكراي.

وبعدئذ ستمر الذراري الجديدات وتحل محلها الذراري

اللاحقات. فتجلس فتاة في صباح خريف شجيّ كهذا  
الصباح على مقربة من نافذتها وراء الأستار المخرمة وترسل  
نظرها إلى الأفق الذابل يفتتها سحر الطبيعة ساكباً أنوار الفجر  
في نقيّ السحاب. وتسال نفسها «أين السعادة؟» فتتملكها  
رغبة فجائية في ركوب تلك السحابة ذات الشكل الطوديّ  
واثقة من أن السعادة كلها في اعتلاء متن النور والهواء.

فتاة المستقبل سترجع بعد حين وتضحك من رغبتها  
قائلة: «إن هذا الجنون!».

أما أنا ابنة الحاضر فأعلم منذ الساعة أن تلك الرغبة في  
النفس الصغيرة المجهولة سوف يثيرها عمل الذكرى التي  
أدخلتها معبد الأذكار ووضعتها على المذبح حارة تتصوّر وتتاوّه  
وتتلوى كالنفس الحائرة بين البقاء والإنتحار.

## العيون

تلك الأحداق القائمة في الوجوه كتعاويد من حلك  
ولجين.

تلك المياه الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطقن  
بالشواطىء وأشجار الحور.

العيون، ألا تدهشك العيون؟  
العيون الرمادية بأحلامها  
والعيون الزرقاء بتنوعها  
والعيون العسلية بحلاوتها  
والعيون البنية بجاذبيتها  
والعيون القائمة بما يتناوبها من قوة وعلوية.

\* \* \*

جميع العيون  
تلك التي تذكرك بصفاء السماء  
وتلك التي يركد فيها عمق اليموم

وتلك التي تريك مفاوز الصحراء وسراها  
وتلك التي تعرج بخيالك في ملكوت اثريّ كله بهاء  
وتلك التي تمر فيها سحائب مبرقة مهضبة  
وتلك التي لا يتحول عنها بصرك إلا لبحث عن شامة في  
الوجهة

العيون الضيقة المستديرة، والعيون اللوزية المستطيلة  
وتلك الغائرة في محاجرها لشدة ما تتمعن وتتبصر  
وتلك الرحيبة اللواظ البطيئة الحركات  
وتلك التي تطفو عليها الأجفان العليا هدهوء كما ترفرف  
أسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال.

وتلك الأخرى ذات اللهب الأخضر التي تلوي شعاعها  
كعقافة كلاب على القلب فتحتجنه، وغيرها، وغيرها،  
وغیرها.

العيون التي تشعر  
والعيون التي تفكر  
والعيون التي تتمتع  
والعيون التي تترنم  
وتلك التي عسكرت فيها الأحقاد والحفاظ  
وتلك التي غزت في شعابها الأسرار.

\* \* \*

جميع العيون وجميع أسرار العيون  
تلك التي يظل فيها الوحي طُلعة خبأة  
وتلك التي تكاثفت عليها أغشية الخمول.  
وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب وينكمش لدى  
من تكره

وتلك التي لا تفتأ سائلة «من أنت؟» وكلما أجبتها زادت  
استفهاماً

وتلك التي تقرر بلحظة «أنت عبيدي!»  
وتلك التي تصرخ «بي احتياج إلى الألم، أليس بين الناس  
من يتقن تعذيبني؟»

وتلك التي تقول «بي حاجة إلى الاستبداد فأين ضحيتي؟»  
وتلك التي تبتسم وتتوسل

وتلك التي يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخراط  
المصلي

وتلك التي تظل مستطلعة خفاياك وهي تقول «ألا  
تعرفني؟»

وتلك التي يتعاقب في مياها كل استخبار، وكل  
انجذاب، وكل نفى، وكل إثبات

العيون، جميع العيون، ألا تدهشك العيون؟

\* \* \*

وأنت ما لون عينيك، وما معناهما، وإلى أي نقطة بين  
المرئيات أو وراءها ترميان؟

قم إلى مرآتك!

وانظر إلى طلسميك السحريين، هل درستهما قبل اليوم؟  
تفرس في عمق أعماقهما تتبين الذات العلمية التي ترصد  
حركات الأنام وتساير دورة الأفلاك والأزمنة.  
في أعماق أعماقها ترى كل مشهد وكل وجه وكل  
شيء.

وإذا شئت أن تعرفني، أنا المجهولة، تفرس في حدقتيك  
يجدني نظرك في نظرك على رغم منك.

## الحكيم ومطالب الحكمة

كان يتكلم والطلبة حوله ينصتون.

كان يتكلم عن ذلك الاتجاه الفكري في القرن التاسع للهجرة، وقد دعاه العرب «فلسفة طبيعية».

فاستطرد الحكيم قائلاً: «وسمي هذا الاتجاه أيضاً فلسفة على الاطلاق من حيث أنه مقابل لفلسفة المتكلمين أو الفلسفة الكلامية.

«وكان الطب أهم مباحث تلك الفلسفة المشار إلى المشتغل بها بالمزج المعتاد بين لفظي حكيم وطبيب.  
«واستمرت تلك الأبحاث إلى القرن العاشر،

«فكان أشهر القائمين بها الطبيب الرازي (المتوفى عام ٩٢٣ أو ٩٣٢).

«عديدة هي الكتب المنسوبة إلى الرازي. وأكثرها

رسالات وجيزة. وقد تشتت جزء يُذكر منها في مكاتب مختلفة.

«ومن تلك المؤلفات كتاب في الكيمياء القديمة أهدها الرازي إلى أمير خراسان، منصور بن اسحق الساماني.  
ولما عجز الرازي عن أن يبرهن عملياً عما أثبتته في كتابه مبدئياً،

«ضربه الأمير على وجهه ضربة أزالته بصره... انظروا إلى هذا التوحش!».

أحد الطلبة: «فعل الأمير ذلك لأن الاعتقاد بفعل الكيمياء القديمة ضرب من الأوهام. وملاحقة الأوهام توجب الردع. فعمل أمير خراسان لم يكن إذاً توحشاً بل عقاباً عادلاً».

الحكيم (بعد سكوت قصير): «إذاً أنت ترى أن هذا الرجل استحق فقد عينه لأنه كان يلاحق ما دعوته أوهاماً؟».

الطالب: «نعم».

الحكيم (بعد سكوت آخر): «إذا كانت ملاحقة الأوهام والاعتقاد بها تستوجب عقوبة العمى فمن ذا منا يا ترى، من ذا من البشر يا ترى يستحق أن يكون بصيراً؟».



## ليلة عيد النصر

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: عامل الحزن وعامل السرور، على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه...

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة: صوت السعادة وصوت الشقاء. فينطلق يعدو والسعادة وجهته. على أن صخور الوعر تهشم قدميه، وأشواك القتاد تدمي يديه، وتأوه الشكل والوداع يفطر لبّه، وتجهده المسؤولية في معترك الأعمال، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال...

عاملان إثنان يتجاذبان الجنان: الحزن والسرور. على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه...

\* \* \*

من لا يذكر ذلك النهار واللييلة التي تبعته، يوم قامت دول الحلفاء تذيع بشائر النصر بدويّ مدفع طالما هدر لدى

الكريهة مجاهراً باستصغار الحياة واكبار المفاداة؟ من لا يذكر  
مهرجاناً انتشرت بهجته على ضواحي العاصمة وتقاسم أفراحه  
صاحب الكف الندي الذي أجزل للمعدم العطاء وصاحب  
اليد الفارغة التي اثقلتها أكياس الطعام والحلوى؟

إلا أن نور النهار باهتٌ لزخرف الأعياد ولا تتمّ الحفلات  
وتسطع الزينات إلا تحت رواق الظلام الغدافي.

وأنت، أيها الظلام، أمينٌ على مواعيدك دقيق في الوفاء  
بها. ما شرعت الشمس مرة في الأفول إلا دنوت أنت متمسكاً  
متمهلاً، كأنك ذلك المحب المحبوب الذي ينفث في روع الفه  
الكلمة المنتظرة طويلاً قبل أن ينبس بها، ويقولها بأساليب شتى  
قبل انتهاج الأسلوب الأوحده.

واليوم، لذن حلولك، تتكيف غيوم المغرب مثلونات  
وتترجرج خلالها الأنجم الزاهرات، كأن هذه وتلك أوسمة  
العز وأشرطة الفخار على صدور الأبطال.

وأقواس النصر هيفاء تحت بنود ألوية تعاقدن عليها،  
والأنوار تتغامز متفاهمات عن بعدٍ كأرواح الأحباب، وأجواق  
الموسيقى تنبثق من جميع الشوارع والزوايا، والجيشوش تجوب  
الأحياء بطبوها دون أن يعلم من أين تجيء وأنى تغدو.

ولأسراب الطيارات عزيّف إذ تحلّق في السماوات العلى

باعثات من جوانبها إلى الأرض بذبول الضياء، مرصعات  
هواء الشفق ببسمة نجوم البرايا لنجوم الباري.

هوذا مائجٌ على الأفاق لألاءِ المواسم والأعياد. ومن  
أحشاء المدينة يصعد هزج النشوة والظفر. كلُّ شيء يلمعُ  
ويموج ويهتف ويتلظى. وقد سرت إليّ عدوى الطرب فها أنا  
أعتلي سطوح الحمى لأشرف على فرح الفارحين وأنال منه  
نصيبِي.

ولكن...

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: الحزن والسرور. على أن  
قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه.

\* \* \*

إذ بينا الانسان يبتهج حاسباً أن أنظمة الاجتماع قد  
انحلت ونواميس الطبيعة توقفت حتى انقضاء سروره، إذا  
بالنواميس والأنظمة نافذة في أدق مغازيها.

... وفي وسط الهتاف المنسجم تعالت نغمة شاذة.

وقفت عند الزاوية المشرفة على الديار المجاورة أبحث عن  
مصدر الأجيح وما لبثت أن عثرت عليه في فاجعة من فواجع  
البؤس العديدة، تلك التي تذوب حياها لفائف القلوب.

هاك أربعة رجال على أحد السطوح المحاذية، يعالجون  
أمتعة أخرجت من غرفة صغيرة ويزجرون امرأة بينهم تتوسل  
وتنتحب. مسكينة احدودب ظهرها، وقبحت هيئتها، ونثر  
شتاء العمر على هامتها ثلج الشيخوخة. لقد مرت شهور  
خمس ولم تؤدّ بدل الايجار فتسلح المالك القوي بالقانون وحجز  
متاعها لبيع بالمزاد، وأما هي فتطرد طرداً من الغرفة الصغيرة  
القائمة في طرف السطح، وتطرد من المنزل إلى تحت قبة  
الساء.

الجماهير السعيدة ترقب أفاعي النور التي شرعت تتلوى  
في الظلام، ترقبها وتهتف. والشيخة التعسة تحيل الطرف  
وتبكي. وما كانت الدموع لتتقلب يوماً ذهباً وفضة يفها  
المدين ويرضى بها الدائن!

هذه هي الطاولة التي تتناول عليها طعامها الغث الجاف.  
وهذا هو المقعد الذي طالما جلست عليه تستطلع خبايا الليل  
البهيم. وهذه هي المرأة الكالحة البلور التي ترجع صورة  
وجهها الكئيب وقامتها المسوخة ودموعها الغزيرة.

وجيع، وجيع مشهد دموع اليأس في المرأة الصلبة  
الباردة!

كم كانت تحرص على هذه الأمتعة الحقيمة! هي تلمسها

الساعة ملاطفة، شاكية، شاكرة، آسفة. ألا أنها لم تعد لها،  
فمن أين هي آتية بمثلها الآن؟.

تعاون الرجال على إخراج أكبر متاع من الغرفة فهرولت  
الشيخة إليهم والزفير في صوتها يقطع الشهيق: هوذا السريرا  
السريـر الذي طالما أنال أعضاءها الكليـلة راحة بعد مشقة  
النهار الطويل.

وضع السرير بجوار الحوائج الأخرى، ووقفت هي عنده  
واستولى عليها الهدوء بغتة، وطفق رأسها ينحني ببطء حتى  
استقر عند نحرها. وظلت كذلك كأنها في جمودها تثال الحزن  
على ضريح ميت حبيب.

الجماعات تضعج والمدافع تقصف، والأضواء تجعل الليل  
نهاراً وهّاجاً. غير أني لم أعد أرى سوى نقاب القنوط المجلل  
وجه الشیخة الذليلة. وكأني لمحت غائرات الكواكب يتشاورن  
في مؤاساة تلك المرأة الوحيدة - الوحيدة وسط ازدحام  
الجماهير.

\* \* \*

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: الحزن والسرور. على أن  
قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه.

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة:

صوت السعادة وصوت الشقاء. فينطلق يعدو والسعادة وجهته. على أن صخور الوعر تهشم قدميه، وأشواك القتاد تدمي يديه، وتأوه الثكل والوداع يفطر لبه، وتجهده المسؤولية في ميدان الأعمال، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال.

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: الحزن والسرور. على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه.

تدافعت الجماهير في الشوارع المؤدية إلى حديقة الأزبكية لحضور المهرجان الأكبر، فهل من باحث يهتدي إلى الشريحة وسط العباب البشري المتزاحم؟

فقدك بصري ولكني لا أفتأ أتحزن لك، أيتها الطريدة. إلى أين تذهبين؟ أتقصدين إلى جمعية خيرية كلهنّ الليلة موصدات الأبواب؟ أم تطرقين باب كريم وكرام البشر لا يعبأون بغير لطيف الجمال أنيق الهندام؟ أم تهجين في مدخل منزل عظيم والناس كالشرطة يعتبرون من لا منزل له لصاً متشرداً؟ أم تبكين كما رأيته بكاء، وتمدين يدك المرتعشة للتسول فيعرض عنك الفرحون لأن نائحاً يعكر صفو الأنس مكروه بحق! أم تستهضين همة صديق ولست بالشابة المليحة ليتحمس لك المتحمسون، ولا بالوجيهة القديرة ليتقرب اليك المتقربون؟ أم أنت وطدت النفس على زيارة النيل السخي

الذي يجود ولا ينتظر وفاء فتجدين من أمواجه صدرأً لِيناً ومن  
أمواه عطفأً عذباً، وتباركين موتاً احتضنك عندما نبذتك  
الحياة.

\* \* \*

أياً كانت وجهتك قفي قليلاً لا ودعك.

نظري بعيد عنك وإنما هو حائم حولك وتتبعك شفقتي  
الدائمة، تتبعك روعي المتفطرة معك.

روحي المتفطرة تعانقك، أيتها المسكينة. أشاعرة أنت  
بوجودي؟ أنا الفتاة استطيع أن أكون لك لحظة أمأً، أيتها  
الشيخة الطريفة. أنت الآن ككل سقيم تحتاجين إلى حنو الأم  
وما كان كل ذي أم نائلاً من الحياة حنواً! سأهمس في  
مسمعك كلمات حلوة لا تعرف سرها سوى شفاه المظلومين،  
وسأمسح عبراتك بأنضر ورود البستان، ثم أهدي الورد وما  
امتصته من لآلء القلب إلى آلهة العبرات والأشجان.

لا تشكي الوحدة فاخوانك الأشقياء كثير. ولا تندي  
حظك بأنواع العذاب جمّة وصنوف الذل لا تحصى. لست  
بالقيحة ما كان لك جمال اليأس الرائع، ولا أنت بالعجوز ما  
ظل منها البكاء فيك فتياً كما كان منذ فجر العالم.

فيك يتجلى الليلة الفرد الجوهري بينا الفرحون يمثلون

الفرد المجازي. أنت الذات الجلييلة المفجعة وهم الذات الهزلية الطائشة. أنت الحقيقة الناضجة وهم الوهم الخالي. أنت قطرة الحزن التي توازي بحر السرور، لأن وراء اللهو والجزل فراغاً وخلواً، ووراء الحسرة والقنوط نفساً زاخرة بالعواطف، متسعة بالحرق، روية بالدموع يتناظر في غورها جبّارا الحياة: الممكن والمستحيل.

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة: صوت السعادة وصوت الشقاء. فينطلق يعدو والسعادة وجهته. على أن صحخور الوعر تهشم قدميه، وأشواك القتاد تدمي يديه، وتأوه الثكل والوداع يفطر لبه، وتجهده المسؤولية في معترك الأعمال فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال.

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان: الحزن والسرور. على أن قطرة حزن في عمقها ترجح بحر سرور في اتساعه.



## الطَّبِيعَةُ المَعْمَرَةُ المَدْمَرَةُ

بتلك الشجيرة الخضراء كنت أزيّن ردهة الاستقبال كل يوم عيد وكل يوم اجتماع.

وفي أحد الأمساء، وقد خرج الزائرون، سمعنا جلبة سقوط وتكسر، فسارعنا، فإذا الهرة البيضاء واقفة في الظلام وقد دهشت لما نتج عن تلك القمزة الواحدة من قمزاتها العديدة.

وكان الإناء الخزفي قد انقلب وتحطم فتبعثرت اجزأؤه، وانفصل عنق الشجيرة المليح عن جذعها وتجنّدل بعيداً كمن يعلم أنه صائر إلى لا شيء، بعد الذبول والجفاف، مع وريقات أنيقة لصقت به فتخللت خضرتها تلك الخطوط الدقيقة من حمراء وبرتقالية وفستقية وصفراء.

فجمدت جهود الأسف.

ثم وضعت العنق الطويل وما انتشر عليه من بهيج الوريقات في آنية طافحة بالماء، لعله يستبقي حسنه أياماً

أخرى أو ساعات. وأحكمت الجذع وما تشبّث به من متراكم  
التراب في إناء خزفي جديد، وجعلت له مكاناً توفّر فيه الهواء  
والنور والحرارة.

وما انقضى أسبوع وجاء آخر إلا وبدت طلائع الوجود  
في ذلك الجذع المجدوع، وأسفرت عند جوانبه بسيمات  
خضراء.

فزدت تعلقاً به وحرصاً عليه، أرقب فيه تفرّع قدود  
الأغصان وتكوّن صور الأوراق؛ ولم يعد ينتظر سوى مرور  
الأيام لينمو ويتكامل.

فوقفت أعجب به ذات صباح وهتفت قائلة:  
- «بورك بك، أيتها الطبيعة السخية الوهوبة! ما أثلّفت  
يد الضياع ودمرت إلا رمت يد العطاء منك وجدّدت. سترّد  
إليّ بفضلك شجيرتي الحسنة، أضعها في صدر الردهة فتبدو  
لي الردهة بها إيواناً صغيراً. بورك بك أيتها الطبيعة الملبّية  
الشفيفة، لأن إشارتك الأخيرة هي دوماً إشارة النذل  
والبناء!».

في هذه اللحظة أقبلت طفلة الهرة المولودة حديثاً تفتح  
عينها المغمضتين للتعرف بما حوالها. وما لبثت أن لمحت  
الأنية الخزفية أمامها: فمدت إليها يدها الصغيرة وقمزت إلى  
حافتها تشتمُ وريقات النبتة المتجددة.

... ترى، أتأتي البنت ما سبقتها الأم إلى فعله؟

## يَوْمُ الْمَوْتِ

ريح خريفية تعصف في الأشجار فتززع عنها الأوراق  
وتسفي التراب فتذرّه في الجو عجاجاً، وأشجان خريفية تشتد  
في مكامن النفس فتثير فيها تذكارات وتهيمن على تذكارات.

اليوم تجرحني الأصوات والخطوات والنظرات وأرى كل  
حركة يأتيها الناس تمثلاً، كأنما الحكمة المثلّي لديّ في تكتّم  
الصور المتوارية تحت صدرة القبور، وفي هجوع الأشكال  
المتقلصة لحين ما من أحكام البعث والنشور.

اليوم عيد الموت وهذا شهر الموت. هذا شهر الكآبة  
المزدوجة: كآبة الحسرة والدموع عند الشعورين وكآبة التأمل  
والتبّع عند الباحثين والمفكرين. للأموات من البشر يعيد  
المعيدون. وأنا أعيد لمن عاش ومضى، وعلم ونسي، ولما ظهر  
واختفى، وأبرق وانطفأ، أي لكيفيات الحياة المعروفة  
والمجهولة جميعاً.

اليوم عيد جميع الموت.

عيد العيون الجامدات، والقلوب الساكنات، والأوراق  
الذابلات، والآمال الداويات؛ عيد شريف الانكسارات  
وذليل الانتصارات، عيد آلهة تزلف لها العباد ونحروا على  
هياكلها الأفئدة قرايين، ثم قاموا يدكون قوائمها، ويحرقون  
معالمها ليدوسوا رمادها بأقدامهم الطاغيات؛ وعيد مذاهب  
شيدت صروحها في مجاهل الغابات وعلى قمم الراسيات بما  
تجمد من دماء القلوب وتصلب من لهب العواطف، ثم انبرى  
مؤمنو البارحة يصيحون بين جدرانها صياح الهادم الأثيم. عيد  
كل ما قدس من رمز ثم احتقر، وكل ما فوخر به من رأي ثم  
دحر. عيد مدنيات دوّن العلم ارتفاعها واندثارها، ومدنيات  
غوّ ذكرها في غلس التاريخ وما زالت حية ظاهرة في  
استعداداتنا وميولنا. عيد عوالم خبت أنوارها في الاطار  
الفلكي، وتطايرت غازاتها وتفتت أجزاءها متفرقة في المدى  
الشاسعات لينضمّ كل منها إلى ما يجذبها من عنصر أو  
كوكب. وعيد شمس طالما بعثت بالنور والحرارة إلى أنظمة  
جليلة فصفرت وإياها في الهاوية الرهيبة صفوراً، وليس من  
يلتفت لغياها. لأن عين العلم وإن تسلمت بالتلسكوب  
ضعيفة عاجزة، ولأن الأكوان لاهية بأنانيتها الحيوية، مسوقة  
إلى تميم دورتها المفروضة، فلا يستوقفها في سبيلها ما يلتهب  
من شمس، ويتحطم من عالم، ويحترق من سيار.

بل اليوم عيدك، أيتها المجرة العظيمة، بما تراكم وتلازب

فيك من ملايين الكواكب المتتابعة التكون والتحول. وأنت على هذه الضخامة لست غير جزء من الخليقة الشاملة حيث تتعاقب الأكوان الفخمة فتملاً الفضاء الذي لا يحد، وتتجدد في كل اتجاه على أبعاد لا يدركها قياس، ثم تبلى وتختفي في ظلمات اللانهاية

\* \* \*

ولكن قبل أن يطير الفكر منا إلى أبراج خاويات وشموس متجلدات، ما ذكرنا الموت إلا احتضنتكم قلوبنا أيها النازحون الراقدون. ما ذكرنا الموت إلا سمعناكم متكلمين، وخلصناكم باسمين، وشعرنا نبضات قلوبكم في راحات أيدينا. فنسألكم «أين أنتم؟» فتجيب القبور «ها هم في حماي». فنفرغ قلوبنا من عناقكم وراحاتنا من نبضات قلوبكم، ولا يرن في مسامعنا غير تنهد الأسى ولا تبصر عيوننا غير سائل عبرات.

\* \* \*

سرت البارحة بين الأضرحة متمهلة أستشق جثمان الماضي الفسيح، فتاقت أعضائي إلى الرقاد في ظل الغصون الحنونة. يا لغرور الذين أقاموا هذه القبور المرمية ناصبين حوالها التماثيل الفنية! عمجأن المنايا يسوي من كبريائنا الصعود والهبوط إذ يلقي بنا في معمل التحول العام، فتعود

أيدينا الحقيرة إلى إعلاء الأكام وحفر الحفرات تمييزاً للذليل  
الأسماء! وبدلاً من أن نبعث بذوينا إلى بارهم على ما يريد  
ترانا نوثقهم بكتائف التظاهر والدعوى، ونثقل كواهلهم  
بالجدران والتماثيل خوفاً من أن نكون بسطاء متواضعين ولو  
في أحزاننا فحسب! ولكن أصوات الموتى تتشابه وراء القبور  
البسيطة الجليلة والقبور المزخرفة الحقيرة: هذا ضريح شهم  
عظيم سألته حكاية نزيله فقال: لقد عاش وأحب وتعذب  
وجاهد ثم - قضى.

وهذا مضجع فقير ينزوي وراء المضاجع سألته عن ضيفه  
فأجاب: لقد عاش وأحب وتعذب وجاهد ثم - قضى.

وهذا قبر فتاة لم ير الناس منها غير اللطف والبسمات وفي  
قلبها الآلام والغصبات، وهو كذلك يقول: لقد عاشت  
وأحبت وتعذبت وجاهدت ثم - قضت.

وهذا قبر امرأة صالحة أسعدت زوجها وأبناءها جميعاً،  
وصوته يقول: لقد عاشت وأحبت وتعذبت وجاهدت ثم -  
قضت.

وهذا قبر من كان عالماً على نفسه وعلى ذويه، وعلى كل  
محيطه حتى من لقيه صدفةً في طريقه، وصوته يقول: لقد  
عاش وأحب وتعذب وجاهد ثم - قضى.

وهذا قبر طفل رضيع لم يُحسب عمره بغير الأيام، وهو يقول هذه هي حكاية الموت وهذه هي حكايتنا نحن اللاحقين

٢٣٢

هذه هي حكاية الموت على الإطلاق، حكاية الظالم منهم والمظلوم، والكبير والصغير، والذكي والمعتوه، والأحق والحكيم، صاحب القبر المرمي الذي لا تبلغ الهامات عتبه، وصاحب المضجع التراي الذي تدوس هامته الأقدام، كلّ منهم عاش مرغماً، وأحبّ مرغماً، وتعذب وجاهد بإمكانه الفطري والاكتسابي ثم - دعاه الردى فلبى صاغراً.

\* \* \*

وإذا تحوّلنا عن هذه المقبرة ذات الحدود إلى مقبرة الخليقة التي لا حدود لها، سمعنا من الزهرة والشجرة والحيوان والانسان والشعب والجنس والمدنية، ومن كل سيّار، ومن كل شمس، ومن كل نظام شمسي، هذه اللازمة التي تأبى التغير: لقد عاش بقوة الحياة التي كوّنته وشكّلته وأدجته في فصائلها. ولقد أحبّ بقوة الجاذبية الشفيفة العنيفة التي تضمّد جراح القلوب لتمزقها، وتواسي أوجاع الأرواح لتضنيها، ونجّلو للعقول أسراراً لتثقلها بغوامض الأسرار. ولقد تعذب لأن العمر ارتفاع وانحدار ونموّ وتناقص، وبين هذه المتناقضات المحتمة يتفطر الفرد في احتياجه الى التوازن

والثبات. ولقد جاهد لأن الجهاد وسيلة يزعمها موصلة إلى الثبات والتوازن. وهي لا توصل إلى غير نفسها، لو علم العالمون! لقد جاهد ضد العناصر وضد الفصول، ضد الأجناس وضد الجماعات، ضد الاصطلاحات المتحجرة والمجازفات المتهورة. ضد الغنى والفقر معاً، ضد الجمال والقباحة، وضد البله والذكاء. جاهد ضد الغرباء، وضد الأعداء، وضد الأصدقاء، وجاهد ضد أحبّ الأحباب. وكان أوجع جهوده ضد ذاته - تلت الجهود التي تكسر لولب القدرة وتبيده بينا الجهود ضد العالم الخارجي تعزّزه وتقويه. ثم عندما تحلّبت منه القوى بالحياة والحب والعذاب والجهاد قضى - أي التحف باللغز الأعظم، وأسدل على حقيقته الظاهرة حجاب، الخفاء، وغاص في مغذية الكائنات ليتقمّص في النار شرارة، وفي الهواء نسمة، وفي الماء قطرة، وفي التراب ذرة. وما هي الذرة؟ أم هي مادة أم هي قوة؟ أم هي فاعلة أم هي منفعة؟ أم هي بصيرة أم هي كفيفة؟ ولماذا تتجمهر ومثيلاتها لتشكل الصور ثم تحلها، ثم تشكلها ثم تحلها؟ أم هي المادة كل وعود الحياة وكل قواها، أم هي الحياة كل وعود المادة وكل قواها؟ ولماذا تتعاون الحياة والمادة حتى تصيرا في دماغنا ادراكاً، وفي جناننا عاطفة، وفي أعضائنا حركة، وفي الحاظنا نوراً، وفي محاجرنا دموعاً، ماذا تريد منا الحياة وماذا تبتغي المادة منا؟ ومتى تنتهي هذه الألعبوبة السحرية التي تبتدىء



بالاهتزاز، وتستطرد بالاهتزاز، ولا اهتزاز ينهيه؟

والآن إذ اسمع الرياح تعتول وتندب، والأجراس تطنُ  
طنين الغم والكرب، والارغون يعزف الحان التفجع  
والانتحاب؛ ثم تتراءى لي أودية وجمال زرعت فيها العظام منا  
وامتدت الأعصاب، وتنسبط لمخيلتي سهول ومروج تغذت من  
أجسامنا وارتوت بدمائنا، وتضج حولي أصوات الباكين  
الحزائي، وتتزاحم أمام ناظري جميع مشاهد الفراق - فراق مرٍّ  
يحتّمه الموت وفراق أمر تقضي به الحياة. فأذوب وأتضاءل ثم  
أذوب حيال بحر الشقاء العام حتى البث ذرة واحدة متوجعة  
متلهفة متفجعة تنوق إلى التلاشي - إذ ذاك تنقشع عن عاقلتي  
حجبُ الجهل والأنانية، وتلقي بي يد الروح الأعظم في  
فضاء اللانهاية، ويحملني جناحان قويان إلى حيث أجد الموت  
حدثاً عرضياً والفناء خيلاً زائلاً. إذ ذاك ينمو كياني ويتعالى  
ويعظم فيتشقق هواء الحياة الواحدة السائدة في كل مكان.

من أعماق اللجج إلى أعالي الجبال، من نواة السلب  
المبعثرة في المادة الخرساء إلى نواة الايجاب الكامنة في بوارق  
الكهرباء، من ذرة الرمل، إلى الشجرة المزهرة، إلى الهواء  
الملامس أفنانها، إلى طير سابحات تحت الغمام، إلى فتيت  
شموسٍ تلبّد في حضن المجرة، إلى أبعادٍ لا يدركها غير  
الخيال العظيم، إلى ما وراء ذلك من إطار الخليقة السلبي،

إلى كل نقطة من كل مسافة في كل مكان من كل زمان في كل  
أبدية تتموِّج حركة الحياة النضناض متتابعة متقطعة، متفردة  
متنوعة، متظاهرة متوارية، متلاطفة متخاشنة، متمهلة  
متضاعفة، متشددة متعادلة، أبدية أزلية سرمدية. صوتها  
العجيب يتراجع من حنجرة إلى حنجرة، ومن أفق إلى أفق،  
ومن عالم إلى عالم، ومن سكوت إلى سكوت، مولولاً مع  
الأعصار، هامساً مع النسمات، نادباً مع البحار، مدمماً مع  
العناصر، متمتماً مع ثلاثمائة ألف من أجناس الحشرات،  
صامتاً مع جميع المكروبات والذرات، آجاً مع المجهولات،  
ملعلماً مع الآلات، حافاً في حفيف الأفلاك، داوياً بجميع  
أنغامه ونبراته في ملايين الملايين من أصوات الخلائق.

تكسونا الحياة كرداءٍ سحري لا تبلى خيوطه وتحضننا  
السماء فنحن فيها مقيمون قبل الحياة وبعد الموت، والجحيم  
والفردوس في نفوسنا يتناوبان. تغزونا الحياة في الاندحار وفي  
الانتصار، فنحن أبطالها ونحن ضحاياها سواء اشئنا أم لم  
نشأ.

ما الأرض والبحار وأبعادُ الأفلاك، سوى مدافن دهرية - .  
إنما هي الوقت نفسه معاملُ توليدٍ وتكوين. نحن نخلد  
الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها. ونحن أبدأً كذلك حتى  
تثلج الشمس وتضمحل قوى العناصر وتفتكك عرى الأكوان

سابقة في الفناء الأنور، في البقاء الأوحـد، في حـضن الله .

إذاً أعيدُ الموقـ اليوم أم عيد الأحياء؟

إنما اليوم ككل يوم، عيد الناموس الفرد الذي يعجن  
أشكالاً تبدعها الطبيعة العلماء. يجبلها باليد الواحدة التي  
تدعى التكييف قطعاً ذات صور معيَّنة. ولا يفتأ يستخرج  
الجديد من القديم ويدغم القديم في الجديد، ليتمَّ للأحقاب  
تعاقبها بالبشر والأفلاك والزمان في مجاهل اللانهاية الخالدة.

## في مرقص الحياة

... ودرجت في التيار المكتسح الملايين فبلغت  
جوانب الميدان الفسيح الذي تلجه الأفواج من جميع  
المناهج، حتى إذا انتمها الأيام والاختبار تغلغلت فيه  
شيئاً فشيئاً. في ذلك الميدان تقيم الحياة مرقصها ليس  
في قصر واحد كما ظننت قبلاً، بل في مئات الألوف  
من القصور والمنازل والأكواخ وما بينها من الصحارى  
والواحات والجبال والوهاد والبحار. وما كنت أخاله  
الحاظ نور تناديني وجدته مزيجاً من مشاعل الانتصار،  
وأضواء الأفراح، ولعان الأسلحة، وشموع  
الجنازات، ووقود التدفئة، ومسارج النذور، ونباريس  
الاجتهاد والعناء. والنشيد الذي حسبته أهزوجة  
طرب وجبور كان خليطاً هائلاً من صراخ الصرعى  
وعويل الهلكى واستغاثة الغرقى، وأنين المحرومين  
واسترحام المتوجعين، وتهليل الفرحين والسعداء  
والمستفلحين، وابتهاال الاتقياء والزهاد والمصلين،

وزفير الحفيظة والشماتة، وصعق التحريض والتهديد والاستنزال، وحمد القناعة والشكر والرضوان - وألوف ألوف الأصوات المؤلفة نشيد الحياة الرائع المستديم.

والقدرة الخفية التي أوقفتني في الكوة ثم دفعت بي إلى السير وأوصلتني إلى هذا الميدان، هي التي سوتني والذين جعلتهم حولي يصفقون ويلطمون. فتذمرت مع الضعفاء وانتصرت مع الأقوياء، وتواكلت كالطفيليين وتنشطت كالنبلاء، فعرفت كيف يعز الناس وكيف يذلون، كيف يجوعون ويشبعون، كيف يؤلون ويتألمون، كيف يستبدون ويظلمون. عرفت عبودية المساكين وحسدهم ولجاجتهم واستقلال الأغنياء وأناقتهم وجفافهم. عرفت أن لكل امرئ غماً وإن هش وبش، وأن لكل عاتق حملاً وإن تقوّم وانتصب، وأن لكل من أسرى الحياة أطمعاً ومطالب وشكايات: فواحد يبتغي الفوز بالحدق والجهود، وواحد يكد ولا ينال شيئاً، وواحد لا يتعب ولكنه ينال كل شيء، وواحد يصيح بأنه ذو حق ونصيب وليس له الكفاءة والاجتهاد اللازم للظفر بذلك الحق والتمتع بهذا النصيب. وبيننا جلبة الأصوات تتعالى من كل صوب يطغى المد جارفاً

الجماهير والأنظمة والجهود والمطامع فيحتضنها من  
الحياة العباب الرجاف كما يحتضن الخضم الزاخر  
ملايين القطرات التي لا تعد ولا تحصى - وتظل  
الحياة محيية مرقصها حيث تتابع الأشباح والصور  
واللغو والحركات والأنوار والظلمات ...

وها أنا ذا أسير في أطراف مرقص الحياة معانية  
ما يعانيه مساجين الوجود جميعاً، يبرح بي وإياهم  
الشوق إلى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحي  
المتجدد بوجودها. وعند كل خطوة خيبة وكمد،  
وعند كل خطوة أمل وجذل، وعند كل خطوة روعة  
حيال هذا السيل الحيوي الذي يتدفق مرغياً مزبداً  
إلى حيث لا يدري. وعند كل خطوة استفهام لا  
جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم  
وغايته، عن معنى الطرب وغايته. وعند كل خطوة  
سؤال للكون لماذا وجدت النفس الانسانية كالنحاس  
المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رناناً عميقاً  
وجيعاً...

## كن سعيداً

في هيكل الأشجان الانسانية وقف الزعيم الأكبر يخطب  
في القوم فسمعته يقول:

«إذا كنت غنياً كن سعيداً لأن مزاوله الأمور الخطيرة  
هَيْتَ لك وكنت مشكور الصالحات مرجو الجميل. لقد عزَّ  
جانبك، ومُنعت حوزتك، ونُشر رواق العز فوق ذمارك فتمَّ  
لك وجه من وجوه الحرية والاستقلال. وإن كنت فقيراً كن  
سعيداً لأنك سلمت من شلل معنوي ابتلي به من دانت  
لرغبته جميع المطالب ووقيت ما عُرض له السريُّ من حسد  
وكره، فلا تتلظى الصدور لنعمتك ولا يُنظر إلى متاعك بعين  
مريضة.

«إذا كنت محسناً كن سعيداً لأنك ملأت الأيدي  
الفارغة، وسترت الأجساد العارية، وكوّنت من لا كيان له  
فرضيت عن نفسك ووددت إسعاد عشرات ومئات لتضاعف  
مسرّتك النبيلة الواحدة بتعدد المنتفعين بأسبابها. وإن عجزت

عن الأحسان كن سعيداً! فقد آجلت ساعة تشهد فيها نكران الجميل ممن صانعت فاتخذ المعروف سلاحاً يهددك به حاسباً التجني شجاعة والسفاهة حذقاً. تلك الساعة لا بد من مرورها فتتوتر لها أعصابك، ويفوز سخطك، وتقسو عواطفك، ويحف منهل كرمك، وتحتقر الانسان وتيأس من إصلاحه قبل أن تصل إلى قمة الغفران السامي والتغاضي الحكيم.

«إذا كنت شاباً كن سعيداً! لأن شجرة مطالبك مخضلة الغصون، وقد بعد أمامك مرمى الآمال فتيسر لك إخراج الأحلام إلى حيز الواقع إذا كنت بذلك حقيقاً. وإذا كنت شيخاً كن سعيداً! لأنك عركت الدهر وناسه وألقيت إليك من صدق الفراسة وحسن المعالجة مقاليد الأمور: فكل أعمالك إن شئت منافع، والدقيقة الواحدة توازي من عمرك أعواماً لأنها حافلة بالخبرة والتبصر وأصالة الرأي، كأنها ثمرة الخريف موفورة النضج، غزيرة العصير، أشبعت بمادة الاكتمال والდسم والرغبة.

«إذا كنت رجلاً كن سعيداً، لأن في شهامة الرجولة يتجسم معنى الحياة الأكبر. وإذا كنت امرأة كن سعيداً! فالمرأة منشودة الرجل، ونبيلها موضع اتكاله، وعذوبتها مستودع تعزيتة، وبسمتها مكافأة أتعابه.



«إذا كنت رفيع الحسب كن سعيداً! فقد فزت بثقة الجماعة دون أن يوصي بك أحد. وإن كنت وضع النسب كن سعيداً! لأنه خيرٌ لك أن تكون مؤسس عيلتك ورافع عمادها الذي تعرف به وتفاخر بذكراه، من أن تكون أحد أبنائها المرغمين بطبيعة الحال على حمل اسمهم ولا فضل لهم بأعلائه.

«إذا كنت كثير الأصدقاء كن سعيداً! لأن ذاتك ترتسم في ذات كل منهم. والنجاح مع الصداقة أهر ظهوراً والإخفاق أقل مرارة. وجمع القلوب حولك يستلزم صفات وقدرات لا توجد في غير النفوس ذات الوزن الكبير، أهمها الخروج من حصن أنانيتك لاستكشاف ما عند الآخرين من نبل ولطف وذكاء. وإذا كنت كثير الأعداء كن سعيداً! لأن الأعداء سلّم الارتقاء وهم أضمن شهادة بخطورتك. وكلما زادت منهم المقاومة والتحمل، وتنوع الاغتياب والنميمة، زدت شعوراً بأهميتك، فاتعظت بالصائب من النقد الذي هو كالسم يريدونه فتاكاً ولكنك تأخذه بكميات قليلة فيكون لك أعظم المقويات. وتعرض عما بقي، وكان مصدره الكيد والعجز، إغراضاً رقيقاً. وهل يهتم النسر المحلّق في قصيّ الأفاق بما تتأمر له خنافس الغبراء؟

«إذا كنت صحيحاً كن سعيداً! فقد استبان فيك توازن

الناموس الكلي وانسجامه وأهملت لمعالجة المصاعب ودحر العقبات. وإن كنت عليلًا كن سعيداً! لأنك مسرح تتقاتل فيه قُوَّتَا الكون العظيمتان فالغلبة لما تختار منها والشفاء موقوف على ما تريد.

«إذا كنت عبقرياً كن سعيداً! فقد تجلّى فيك شعاع المعنى من المقام الأسنى ورمقك الرحمن بنظرة انعكست صورتها على وجهك فكراً، وفي عينيك طلسماً، وفي صوتك سحراً. والألفاظ التي هي عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع صارت بين شفتيك وتحت لمسك ناراً ونوراً تلذع وتضيء وتحرق وتهنأ، وتخبجل وتكبر، وتذلّ وتنشط، وتوجع وتلطّف، وتسخط وتدهش، وتقول للمعنى «كن!» فيكون. وإن كنت خاملاً كن سعيداً! لأن الألسنة لا ترهف حدها لتذكرك، والأنظار لا يستعر فيها لهيب التفحص وحب المنافسة إذ تتجه إليك. هاك القمة فاقتحمها إن كنت كفؤاً. وإلا فاقنع بانك جزء مهم من أجزاء الكون تستعملك الكفاءة وقوداً. فالإيوانات الباذخة لا تقوم بغير الحجارة الصغيرة، وأنت متمتع براحة لا ينعم بها من لا ترتوي شفتاه بغير ماء الحياة ولا تغتسل روحه بغير سيول الالهام.

«إذا كان صاحبك وفياً كن سعيداً! لأن الأيام حبتك بكنز من أئمن كنوزها. وإن كان خائناً كن سعيداً! لأنه لم يكن

على استعداد لاستماع أمثلة خفية تلقى عليها نفسك. ولا يغادر امرؤ حظيرة المحبة إلا ليفسح مكاناً لمن هو خير منه وأجدر.

«إذا كنت حراً كن سعيداً! ففي الحرية تتمرن القوى وتشدد الملكات وتتسع الممكنات. وإن كنت مستعبداً كن سعيداً! لأن العبودية أفضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحرية وتقف على ما يصيرك لها أهلاً.

«إذا عشت في وسط يفهمك ويقدرك كن سعيداً! فهناك اكتسبت كل يوم شباباً جديداً وقوة جديدة، وثمرت روحك ثم نمت حتى أذهلتك منها الآفاق والبحار. وإن عشت في وسط متقهقر منحط، أيها التعس! كن سعيداً. لأنك في حل من أن تخلق لك جناحين تطير بهما فوقه، إلى حيث تبدع من أشباح روحك عالماً حوى قوتاً لجوع فكرك وشراباً لظمأ جنانك.

«إذا كنت محبباً محبوباً كن سعيداً! فقد دلتك الحياة وضممتك الى أبنائها المختارين، وأرتك الألوهية عطفها في تبادل القلوب، واجتمع النصفان التائهان في المجهل المدهمة فتجلت لهما بدائع الفجر وهنأتها الشمس بما لم تهتد بعد إليه في دورتها بين الأفلاك، وأفضى إليهما الأثير بمكنون أسرارها، لذلك هما يتأملان حيث يتصايب الخالي، ويصمتان حيث

يتكلم، ويمزحان حيث يجدّ، ويتفرسان في خطوط البقاء حيث لا يلمح هو خيالاً.

«وإن كنت محباً غير محبوب كن سعيداً! لأن النابذ يجب المنبوذ في أعلى طبقات كيانه - حباً لا يدانيه افتتانه بمن يهوى. والهجران حالة جمّة المعاني والألغاز ترقق ما ضخّم من الرغبات وتصفّي ما عكر من الانفعالات حتى يغدو الفؤاد شفافاً نورانياً متلاًثماً كآنية تتناول فيها الآلهة كوثر الخلود.

ولسوف تفوز بمن تريد إن لم يكن في تلك الصورة الأنسية المتباعدة ففي سواها. تهيّاً للحب مهما أثقلتك المشاعر لأن للحب هبات وسكنات، وأنت لا تعرف ساعة مروره. كن عظيماً ليختارك الحب العظيم، وإلا فنصيبك حب يسفّ التراب ويتمرّغ في الأوحال، فتظل على ما أنت أو تهبط به، بدلاً من أن تسمو إلى أبراج لم ترها عين ولم تخطر عجائبها على قلب بشر، لأن هياكل مطالبنا إنما تقام على خرائط وهمية وضعتها منّا الأشواق.

«كن سعيداً لأن أبواب السعادة شتى، ومنافذ الحظ لا تحصى، ومسالك الحياة تتجدد مع الدقائق. كن سعيداً دواماً، كن سعيداً على كل حال!«.

\* \* \*

انفضّ القوم فإذا الجماعات تقف عند بقية جدار خارج الهيكل لتتحب وتبكي، ومضى غيرها في سبيله ضاحكاً هازئاً. فنظرت إلى شبح انتصب قربي نظرة استفهام فقال: «أنا روح الخطاب جئت أرى تأثيري في الناس».

قلت: «إذن أنت تعلم ما هذا الذي يبكي الناس عنده».

قال: «هذا جدار الدموع».

قلت: «وهل هؤلاء يهود وهل نحن في اورشليم؟»

فقال: «للانسانية كما لليهود «جدار دموع» تبكي عليه وتتحسر».

قلت: «ولماذا يبكي هؤلاء بعد تلك الخطبة المعزية الموحية الرجاء، خطبة السعادة الجميلة؟».

قال: «منهم من يبكي لأنه لم يسمعها من قبل. ومنهم لأنه سمعها قبل الآن ولم يستفد. وآخر لأنه استفاد أياماً ثم تغلب عليه المحيط وجرت له الورثة بأنقالها الباهظة إلى هوة القنوط. وغيره يبكي بكاءً عصيباً لأن الباكين يحيطون به ولو ضحكوا ورقصوا لكان أول المقلدين. وغيره ليظهر أنه ذو نفس حساسة تستوعب كل تأثير صالح. ويبكي غيره لأنه يرى في الجدار المحطم صورة لآماله الذاتية وهو من الذين

يندبون حيال متراكم الأخربة، ومندثر الديار، ومتعفي الآثار.

قلت: «وأولئك الضاحكون؟»

قال: «هم ذور الأذهان المحددة التي لا تعترف بما لا تفهم وتهزأ بكل ما لا تعترف. إنهم أحق بالاشفاق من الباكين».

قلت: «وهناك خيالات لا ييكيان ولا يضحكان. رجل وامرأة يسيران جنباً إلى جنب بخطوات هادئة بطيئة منحنيي الجبهة وفي عيونهما تتألى دوائر الأفكار، أتدري من هما؟».

فرنا إليهما الشبح وقال: «هما الأرض المخصبة. هما الشعلة المقدسة. هما اللذان فهما واستفادا».

فقلت مكتئبة: «أسفاً على الخطاب البليغ تسمعه الجماهير الغفيرة فلا يستفيد به سوى اثنين!».

فتألق وجه الشبح بنور سماوي وقال: «بل ما أنفعه خطاباً هو في هذين الروحين غلة للدهور، وفي هذين الفكرين مجدّد للقديم، وفي هذه الأيدي مشعل يتطاير منه الشرر فتتقد به شمس الأفلاك وشمس الأذهان. بورك به خطاباً، بورك به!».

وغادرنى الشبح وسار إلى ذينك الخياليين فنشر من كتفيه جناحين خفيين وحلق فوق رأسيهما يقودهما ويرعاهما.

## السهرات الراقصات

دنا موسم السهرات الراقصات فيمّمها أهل المدينة  
أفواجاً. وسرت في جملة السائرين بثوبي القرمزيّ المرّدن  
والقلب يحدوني بشدو الشباب والطرب. وما خطوت في القاعة  
الساطعة خطوة حتى ترنحت لتوقيع العازفات والعازفين.  
واستحطني تمايل الراقصات والراقصين فأغفلت ذكر اللواعج  
والتباريح، ونسيت أنه بينا في رحبات الجدل يتمتع السعداء  
ويلهون إذاً في كهوف القدير تتفطر حشاشات وتدمع عيون.

رقصت مع كل راقصٍ ذي كياسة، واحتسيت الكوثر من  
كؤوس عسجدية، وبسمت شفتاي لكل شفة باسمه، ولمعت  
عيناي لكل عينٍ لامعة. ولما طاف طائفُ الكرى بين أجفاني  
عدت مستوفية السرور إلى مضجعي ونمت نومة طويلة عميقة.

واستيقظت في الغد فأذهلني أن أشعر بترضررض في  
روحي، وبطعم الفناء في فمي، وبأثقال تميع على صفحة  
وجداني كأنها أحمال الدماء.

وفي السهرة الثانية حيّاني أظرف رجل بين الرجال وقال:  
«هل لك في دورة تتوافق وأنين الأوتار؟».

قلت: «بل عفوتُ اليوم عن نفسي وعن أبناء الأنس  
أجمعين فلا هم يتعبون بمراقصتي ولا أنا أتحف بتعليقهم  
عليها».

قال: «إذاً نجلس في خلوة المقصف حيث الشراب  
والحلوى والمجاملة».

قلت: «لا. بل على الشرفة الصغيرة حيث النور رقيقٌ  
يمازج الظلام ولا يزيله. اتصل بي محدثُ المعيّ فكل سهرتي  
هذه إصغاء».

فقتل شارييه بأناقة، ورنّا إلى طرفيهما باعجاب ثم،  
انحنى شاكراً لأنه متواضع. ثم سار بي إلى الشرفة وقال:  
«تفضلي إذاً واستريحي على هذا المقعد ذي العلاقة بصاحبة  
الملايين».

قلت: «ومن هذه؟ هات بطرف من حكايتها».

ف فعل بظرف واضحكني شديداً. ثم قدّم إليّ زهرة أهدى  
مثلاً ذلك النبيل إلى تلك العظيمة، وسرد حكايتهما. ثم تلا  
عليّ رسالة جاءت من تلك الجميلة وأخرى وردت إليه من  
ذلك الوزير، وسرد حكايتهما.



ثم حدثني عن آخرين وآخرين. وكان الراقصون يتابعون أزواجاً متخاصرة وذاكرة نديي سجل حفظت صفحاته الأمانة تواريخ الأفراد والجماعات صعوداً إلى آباء الآباء بما يزينها من فضل - وما أقله! - وما يشوبها من نقص - وما أوفره! وتطرق إلى الالامع عن تأثيره الحالي في تقسيم الممالك واتفاق الدول وعقد المؤتمرات وسن القوانين. تلك شؤون لم يكن ليعرفها أحد وإنما هو كان يُسرُّ بها إليّ لأنه ينظر إليّ بعين الاكبار والاعجاب، وكل ما يتبع هذين أو يسبقهما من الاعتبارات، فكنت أصغي متفكّه ضاحكة إذ أجد في ما يقول ظرفاً لا يبارى، وتوقداً لا يخمد، وفطنة لا يلحقها كلل أو نضوب. إلا أني كنت أهمس لنفسي «ليته يسرد لي حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون!».

وأثينا على آخر السهرة فقلت باخلاص «ما كان أقصر هذه الساعة!».

فقتل شارييه بأناقة، ورنّا إلى طرفيهما باعجاب، ثم انحنى شاكرًا لأنه متواضع. ثم قال مشيراً إلى رجل بطيء الخطى، مهيب المنظر، مرّ على مقربة منا. قال: «لا أدري ما إذا كانت قصيرة في نظر هذا».

فسألت: «ومن هو هذا؟».

أجاب محدثي «هذا أحد اثنين: فإما يظل صامتاً فلا يدرك المرء لسكوته معنى ولو عاشره مليون سنة، وإما يتكلم... فينطبق عليه قول يزعم أحد الظرفاء أن الله قاله عن الرئيس ابن سينا!».

قلت: «ألا اخبرني بما يزعم ذلك الظريف أنه تعالى قاله عن ابن سينا!»

فحدثني نديمي قائلاً: «يزعم صاحبي المليح النكتة أنه لما مضى ابن سينا إلى ربه جاءه الملكان وسألاه «ما هو الله؟» فأجاب لفوره: «هو اسطقس فوق الاسطقسات».

فتبادل الملكان نظرة فلم يفهما. فذهبا إلى الحق سبحانه وقالوا: «ربنا! لقد جاء الساعة عبد من عبيدك البشر، رجل يتكلم كالمتكلمين ولكننا لا نفقه لقوله معنى».

فسأل الحق جلّ وعلا: «وماذا يقول هذا الرجل؟».

فأجاب الملكان: ربنا! سألناه «ما هو الله؟» فقال: «هو اسطقس فوق الاسطقسات».

فأطرق المولى سبحانه وقد ألبس عليه مغزى الكلام، وقال: «إن أمر هذا الرجل لغريب! وما اسمه، أيها الملكان؟».

فقال الملكان: «ربنا! اسمه عبدك الرئيس ابن سينا».

فضحك ذو الجلال وقال: «هاهاها! لقد عرفته! فدعاه  
وشأته. هذا رجل قضى عمره متكلاً فلم تفهم خلائق  
الأرضين كلمة من أقواله».

«ذاك، على زعم صاحبي، ما قاله الله تعالى عن الرئيس  
ابن سينا».

فضحكت ثم ضحكت، وودعت محدثي قائلة: «حقاً  
إنك رجل ظريف!» وهمست لنفسها مرة أخرى «ليته سرد لي  
حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون!».

\* \* \*

واستيقظت في الغد فأذهلني أن أشعر بترضرص في  
روحي، وبطعم الفناء في فمي، وبأثقال تميع على صفحة  
وجداني كأنها أحمال الدماء.

وبكى في قلبي لما شهدته من الدعوى الفارغة. واللغو  
المزعج، والتمثيل الكاذب، والعاطفة السقيمة. ثم قلت  
مصممة: «إذن فالليلة لا رقص ولا حديث».

وجنّ الليل فقصدت إلى السهرة الحافلة. تجنبت قاعة  
الراقصات والراقصين، وهربت من أطرف رجل بين الرجال،  
وانتحيت مكاناً فيه ينفرد الرجل السكوت.

بادرته بالتحية فلم يردّ التحية، وألقيت عليه الأسئلة فلم

يحر جواباً وإنما نظر إليّ نظرة رأيت وراءها محافل الأجيال ومواكب الدهور. فجلست في ظلّ سكوته، ولم يكن سكوته سوى سكوت الفضاء المملوء بحفيف الأفلاك. وانبسّطت دوائر فكره وترامت قليلاً قليلاً فاحتوت هالة كياني، واجتذبتني منه القوة السرية إلى سويداء قلب الوجود حيث الليل الأليل يفضي إلى برج الأضواء.

وانتهت السهرة قبل أن تبتدىء. ولما عدت إلى مضجعي لم أرقد إلا لأواصل السير في عالم السكوت.

واستيقظتُ في الصباح فحرّكت روعي جناحيها وقد لونتُهما أشعةً قوس الغمام، وارتفعت جبهتي تحت تاج معنوي قد ركز عليها، ونبوْتُ وكبرت فجأةً لأن مختلف الرغبات في المعرفة والاطلاع انبثقت فيّ.

وها قد انقضت ملايين أعوام فيها تعلمتُ جميع لغات الأنس والجن، ووعيت جميع علومهم، واستظهرت جميع مصنفاتهم، وتعلمتُ لجميع أساتذتهم، وجادلت جميع فلاسفتهم، ومحصت جميع أقوالهم، وسبرت أغوارهم، وتسلفت جميع قممهم، ولمستُ قدماي الداميتان عتبات الغيوب دون أن أظفر بادراك أبسط معنى يجول في خاطر الرجل السكوت.

## الموضوع الثاني

جاء من «النادي الأسنى» وفدٌ كبيرٌ يدعوني إلى القاء  
خطبة في الحفلة السنوية. فخاطبتُ الوفدَ قائلة:  
«أيها السادة العلماء والأعيان والفضلاء.

«أنتم تمثلون في أشخاصكم المحترمة جميع مراتب  
المدعوين. ولما كنتُ طامعة في رضاكم ورضى الجمهور لثلاث  
يضيع الوقت سدى ونكون عرضة للانتقاد، فأنا أطلب  
إليكم أن تتفق كلمتكم على موضوع أخطب الناس به،  
فأقبل دعوتكم بارتياح».

فقال أحد الأعضاء: «حبذا الاقتراح الحصيف! أما ونحن  
عند حركة نسائية نبتغي أن تتناول نساءنا وبناتنا، فأحر بك  
أن تتكلمي في ترقية المرأة عن طريق العلم والتهديب لأنها،  
وهي دعامة العائلة، إنما عليها تقوم عظمة الأمة وسلامة  
العمران».

فقال آخر: «عفوك سيدي، كل موضوع غير هذا حسن.

أما إذا ذاكرتنا بهذا الشأن فقد ينسحب المدعوون واحداً بعد الآخر، كما سبق أني فعلتُ وبعض أصحابي يوم قامت سيدة تلوك أمامنا ما سئمنا سماعه، حتى صرنا نحسب أنها مرّدة اسطوانة فارغة تحوك الألفاظ ولا تعي. فلتحدّثنا إذاً خطيبة الغد عن الحركة العمرانية الكبرى وروح العصر العامة فذلك أنسب وأنفع».

فقال ثالث: «أنزجج ابنتنا بتهيئة ما قد نلّم به من مطالعة الصحف السيارة وإنباء البرق والبريد؟ نريد أن نشط النساء ونبث فيهن حب الرقي والعرفان، كما نريد تحويل الرجال عن القهاري وموائد المقامرة وحانات الرقص. فلتتكلم إذاً في موضوع علمي فلسفي يشحذ القرائح ويغذي النفوس».

فقال آخر: «سينعقد الاجتماع بعد طعام العشاء أي ساعة لا يكون هناك متسع «للتغذية» ويكون «الشحذ» في غير أوانه. وما نفع كلام لا يفهمه سوى النفر القليل فتزهق أرواح الآخرين فيحسبون الخطيبة متقعرة ويمقتون في جهلهم وتحلفهم العلم للنساء؟ ألا فلتلقي علينا بحثاً في ما مارسته اخواتها دوماً، حتى في العصور المظلمة، كالموسيقى والرقص والغناء فيجيء كلامها سائغاً ملطفاً بعد عمل النهار الشاق، ولا تغلق معانيه على أحد».

فاعترض آخر قائلاً: «أتريد لتسلّي أنت وترتاح أن تجعلها

هدفاً لتبجح السخفاء الذين سيقولون: بدلاً من أن تلقي علينا دروساً نظرية في الرقص والغناء فالأوفق أن ترينا منها الدرس العملي طارحة عنها عناء العلم والبحث والتنقيب». قلت: «إذاً أنه خير لنا ولها أن نعمل إلى عادة من عاداتنا الشائنة فتحكم تمحيصها وإظهار أضرارها، مشيرة إلى عادة أخرى يحسن الجري عليها، فنخرج من تلك الحفلة متفاهمين مستفيدين».

فقال آخر: «إذا طلبنا الوعظ والارشاد واحتجنا إلى التهذيب والتقويم فعندنا الكاهن في الكنيسة والخطيب في المسجد. أما ونحن في تطوّر قوميّ كبير فلتلفتنا إلى ما نفتقر إليه من المشروعات الزراعية والآلية والاقتصادية العائدة على البلاد بالثروة والفرج، فتحثنا على تأييده ويكون لقلوها تأثير عظيم».

فتأفف آخر قائلاً: «ولكنك تخلط، يا صاحبي، بين احتفالات الأندية وبين أحزاب الإصلاح ولجان التقرير. ليس قصدنا سنّ قوانين جديدة للبلاد، وتعديل ميزانيتها، وإلقاء الدروس على ولاية الأمور، وإبدال برامج التعليم بسواها. إن نحن إلا أعضاء نادٍ اجتماعيٍّ من رجال ونساء يجيئون ليلة أنس وطرب. فأرى أن تترجم مقالاً أو قصيدة عن كاتب أو شاعر غربيٍّ، لأن الغربيين سبقونا إلى الابتكار الذهني،

فتتحفنا بأفكار جديدة نبتهج لها بلا إجهاد».

فصاح آخر قائلاً: «فلتسقط الترجمة إلى الحضيض وليهبط التعريب إلى قعر الهاوية! حرام على من كان ذكياً أن يفني وقته في عمل جدير بمعشر الببغاوات البشرية. أما ونحن في هذا الاجتماع شرفيون لا أجنبي بيننا فلتتكلم إذاً، ولتتكلم بحماسة عن وجوب تعلق القوم بلغتهم ليفهم المتفرنجون كم هم ضالون وخليقون بالسخرية والاحتقار».

فقال آخر: «وما ذنب النادي إليك، يا عزيزي، لتقترح اقتراحاً يعود عليه بالتداعي؟ إن جل الأعضاء متفرنجون ومتفرنجات؛ أتريد أن يسخط هؤلاء تاركين قاعاتنا بلا قع؟ دع الناس يتكلمون بما شاؤوا من لغات أنزلها الله، أما خطيبتنا فلتصدق جنسها النسائي في حكاية غرامية تصف فيها بعض طبقات الناس وبعض عادات البلدان، وتشرح عواطف المرأة ونزعاتها المتنافرة. فالرواية اليوم مسهبة كانت أم موجزة، غدت آلة فريدة لنشر الآراء التاريخية والنظريات العلمية والفلسفية فضلاً عن وصف أحوال الشعوب وتسيير الإصلاح الاجتماعي والديني في وجهة معينة».

فقال آخر: «لا أرى الرواية مناسبة لهذا الموقف، ولا يجعل للرواية هذه الأهمية إلا ذوو الأذهان الكلييلة الذين يأنفون الأبحاث الجادة مجردة من الأوهام والتلفيق. بل فلترم



هي إلى الافادة المباشرة وتحدثنا بما نكبره في فتاة كالطبيعيات والفلك، فأنا لا أحتمل من الكتاب والخطباء إلا الذين تنالني منهم فائدة علمية ما».

فقال آخر: «وهل الإفادة محصورة في العلوم الطبيعية والرياضية؟ وهل هي قائمة في التلقين الأبله كما يلقن المعلم صغار المتعلمين؟ أرى أن الكاتب الأمثل هو الذي لا يتصور نفسه فوق الآخرين علماً وذكاءً، بل يسترسل في أبحاثه واثقاً من أن الجميع يفهمونه. ولكل منهم أن يحتضن من آرائه الخاصة ما يتفق مع ميوله وحاجاته. هذا هو الكاتب الفنان الذي أعزه وأحبه وأهوى مجالسته عند صفحات الأوراق لأنه يعرف كيف يثير مني الشجون والرغبات، وكيف يفتح أمامي جديد الآفاق. أما الذي يُنصَّب نفسه معلماً لي فهو الجاهل المركَّب، هو الدعيُّ المغرور الذي ألقى على تنطعه وتفيقه نظرة واحدة لازداد وثوقاً مما أعلمه، وهو أنه يخيفني من ماء غيره وأنه ليس عنده أكثر مما يعطيني متعاطماً...».

فتند آخرُ قائلاً «رباه! هل جفّت مناهل العواطف في قلوب الناس حتى صاروا لا همّ لهم سوى العلوم والأبحاث؟ ألا فلتُسمِعنا قصيدةً منها منظومةً أو منشورة، فهي شاعرة قبل كل شيء. ونحن في حاجة إلى أجنحة المثل الأعلى تساعدنا

على النهوض من حمأة المادة لنعيش، ولو لحظة، في أبدية الجمال».

فاحتجّ قومٌ على الشعر المنظوم والمنثور قائلين إنه آفة هذا الجيل، وانبرى آخرون يدافعون عنه قائلين إنه سلوى الحياة ووحيتها ورونقها. واشتبك الفريقان في المناقشة والجدل.

فاختليتُ أنا بنفسي أبحثُ عن الموضوع فوجدتُ فيّ اخلاطاً نفيسة من معارف ومدركات وقدرات كانت وستظلّ دوماً إرث بني الانسان: فهناك الأبحاث الفلسفية والتاريخية، وهناك الاكتشافات والاختراعات، وهناك الآداب واللغات، وهناك العلوم الطبيعية والرياضية، وهناك المذاهب اللاهوتية والباطنية، وهناك الفنون الجميلة على اختلافها، وهناك الروايات والأشعار وعلوم البيان ووصف الأسفار، وهناك الموضوعات الخفيفة الرشيقة المفكهة، والأخرى الوجيعة الرثائية المحزنة. وعلى مقربة منها أساليب النقد واقتراحات الاصلاح وخرائط المشروعات المتنوعة.

وبينا جلبة وفد النادي تصطخب حولي جعلتُ أنا أخلق لذاتي الجماهير المتعددة - كما تمثل أحياناً رواية مصغرة خلال تمثيل الرواية الكبيرة -، وصرتُ أخطب في كل جمهور بما يحب ويتطلب. فأقتضب الكلام هنا، وهناك أطيله. أنكلم مرة بتحسُّس الشاعر، وبتدقيق الباحث أخرى. حيناً بصرامة

العلم الطبيعي وحيثاً بسيطرة الفكر الفلسفي. هنا بعذوبة الحب وأنيته، وهناك بقسوة الاصلاح واستثنائه.

خلقتُ لذاتي الجماهير لا لأعلم بل لأتعلم، لا لأفيد بل لأستفيد، لا لأوقف الآخرين على أسرارهم وممكناتهم بل لأهتدي إلى أسراري وممكناتي. تكلمتُ ودرستُ وكتبتُ وخطبتُ لأهذب نفسي وأدللها، لأعزيها وأنيها. فعلتُ ذلك لأطير ونفسي فوق الشواهد، ونحسو ماء الغدران، ونكتنه غور الأعماق، ونمتص عصير الأزهار، فأعيش وإياها تلك الحياة الداخلية الرائعة التي يُشرفُ منها وحدها على بدائع الكون.

وما زلتُ أفعل ذلك، والناس يتناقشون في أي الموضوعات أنسب وأنفع، وفي أي الموضوعات عليّ أن أعالج!

## أَنْتِ أَيْهَا الْغَرِيبُ

أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة،  
وكما يُعرَف السجناء بأرقامهم يُعرَف كلُّ حي باسمه.  
وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم على الضحك  
من سواهم حيناً، والضحك بعضهم من بعض أحياناً.  
أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوؤني. لأنني إنما  
أقلدهم لأريك وجهاً مني جديداً. وأنت، أمتجارهم بمثل  
قصدي أم الهزء والاستخفاف فيك طوية وسجية؟  
ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف، ورغم  
امتعاضي للتغافل منك والحبور، أراني وإياك على تفاهم  
صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان  
والعبوس والتأثر.  
بنظرك النافذ الهادئ تذوقتُ غبطة من له عينٌ ترقبه  
وتهتم به. فصرت ما ذكرتُك إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض

من الصلاح والنبيل والكرم، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على  
جميع الخلائق.

لي بك ثقةٌ موثوقة، وقلبي العتيُّ يفيض دموعاً. سأفزع  
إلى رحمتك عند إخفاق الأماني، وأبثك شكوى أحزاني - أنا  
التي تراني طروبة طيارة،

وأحصي لك الأثقال التي قوست كتفيَّ وحتت رأسي منذ  
فجر أيامي - أنا التي أسير محفوفة بجناحين متوجة بإكليل.  
وسأدعوك أبي وأمي متهبية فيك سطوة الكبير وتأثير  
الأم.

وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا  
دواماً بالمحبين.

وسأدعوك اخي وصديقي، أنا التي لا أخ لي ولا صديق.

وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة، أنا التي  
تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد.

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان، ثم أبكي  
أمامك، وأنت لا تدري.

وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري  
واشتباك السبل.

وإذا أسيء التصرف وأرتكب ذنباً ما سأسير اليك  
متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة.

وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخطك عليّ فأتوب على يدك  
وأمتثل لأمرك.

وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن  
أعمالي حساباً لأحصل على التحبذ منك أو الاستنكار،  
فأسعد في الحالين.

وسأوقفك على حقيقة ما ينسب إليّ من آثام، فتكون لي  
وحدك الحكم المنصف.

وما يحسبه الناس لي فضلاً وحسنات سأبسطه أمامك  
فتنبهني إلى الغلط فيه والسهو والنقصان.

ستقومني وتساعمني وتشجعني، وتحتقر المتحاملين  
والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جنائي.

كما أكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك، ولا  
أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبرُّ شاهد.

كل ذلك، وأنت لا تعلم!

سأستعيد ذكرك متكلياً في خلوتي لأسمع منك حكاية

غمومك وأطماعك وآمالك. حكاية البشر المتجمعة في فرد  
أحد.

وسأستمع إلى جميع الأصوات عليّ أعثر على لهجة  
صوتك.

وأشرّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاضم  
تقديري لأرائك وأفكارك.

وسأبتين في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم  
هي شاحبة تافهة لأنها ليست صور تعبيرك ومعناك.  
وسأبتسم في المرأة ابتسامتك.

في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي  
غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك.

سأنصورك عليلاً لأشفيك، مصاباً لأعزيك، مطروداً  
مرذولاً لأكون لك وطناً وأهل وطن، سجيناً لأشهدك بأي  
تهور يجازف الاخلاص، ثم أبصرك متفوقاً فريداً لأفاخر بك  
وأركن إليك.

وسأتحيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب، وكيف  
تشتاق، وكيف تحزن، وكيف تتغلب على عاديّ الانفعال  
برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلا الانفعال النبيل.  
وسأتحيل ألف ألف مرة إلى أي درجة تستطيع أنت أن تقسو،

وإلى أي درجة تستطيع أنت أن ترفق لأعرف إلى أي درجة  
تستطيع أنت أن تحب.

وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك  
أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون.

أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت  
الذي لا أريد أن تعلم؟



## قرب منعطف السبيل

قرب منعطف السبيل عندما تمثلت انقضاء الماضي،  
وجمود الحاضر واستحالة السير إلى الأمام، لم يبق لي سوى  
اختيار إحدى الميتين: مئة طويلة مفعمة بحشجة القنوط،  
ومئة الانتحار السريعة المنقذة.

فاخترت هذه على أن أجعلها كيّسة مانوسة لا تلطخها  
الدماء ولا تتلوى فيها الأعضاء. واهتديت إلى الأزهار المزعوفة  
التي تطعم منعها العطر بالسّم ولهاث الردى. ولكن -

هناك، في تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القدر من  
دواهيهِ على صدري جدران الحديد ومعازل الرصاص، هناك  
قرب حلول الشفق برزت فجأة أمامي.

وأخذت تتكلم عن معاني اختفت طي المعاني، وأشياء  
توارت في الأشياء، وممكنات حُجبت في المستحيلات، وخير  
حصحص وراء الشر، ونور أشرق في لجج الظلام، وسمو  
تجلى جلال الحقارة.

وكانت يدك تتحرك متريثةً متأنيةً فبدت منها الإشارات  
سحريةً ساهيةً، كأنما هي انعكاس إشاراتٍ خفية على المرايا  
المتبحرة في مهجور القصور وضاء الجو حولي بالألاء الشرف  
والأبهة والسودد. ومشى نظرك توأً إليّ يكتشف فيّ جديد  
العالم.

نظرت، فعلمتني أعزاز الوجود وأدركتُ أني ما تخلتُ  
أجلي عند حينه إلا لأتشدّد وإتحضر لوثية كبيرة - كما يتنفس  
المتسابقون منتعشين متجددين قبيل خطير الأشواط.

فارتدت الحوائط قليلاً قليلاً وتنحّت الحصون مسفرة عن  
المروج والرياض واتشحت الكائنات بنقاب وسيم لا تنسجه  
سوى يد الوجد على زعم المتيمين.

ولكن، أنى جاء الوجد؟

أنت لم تكن تهتم بي وأنا لم أكن أهتم بك. ولكن علام  
تشلّ أوصال روحي للذنو من مكان حللته؟ وعلام اضطرابك  
وارتعاش يديك إذ تلمح خيالي عن بعد؟

أنت لم تكن تنظر إليّ وأنا لم أكن أنظر إليك. ولكن لماذا  
كانت تتبيلل خواطري وأهرب عند قدومك؟ وأنت ان لم

تستطع السكوت، لماذا يخرج صوتك متقطعاً متهدجاً كأنك  
تجاهد لتقهر تأثراً ما؟

أنت لم تكن تعباً بوجودي، وأنا لم أكن أعباً بوجودك.

ولكن لماذا كنتُ أخاشنك متعملة الإعراض وعدم  
الانتباه؟ ولماذا، وأنت مثال الوداعة والتهديب، كنت تكفهر  
لحضورى وتنقبض كمن يود أن يتجنى عليّ، أو كمن يخشى  
أن يُرمى بالبشاشة والمجاملة، ثم يعود نظرك في المرة التالية  
يستفحصني عن زلته - أنا التي كنت أغتفر لك وأتناسى  
مرغمة قبل أن تحدّث نفسك بالاستغفار.

أنت لم تكن تفكر فيّ وأنا لم أكن أفكر فيك. ولكن لماذا  
كنت أحيّد عن طريقك لثلا ألتقي بك أنا التي أود أن أبحث  
عنك في كل مكان؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك إذ تعلم أني  
أرقبها، وتنغم نبرات صوتك وتنوعها إذ تعلم أنها واصله إليّ؟

أنت لم تكن لي شيئاً، وأنا لم أكن لك شيئاً، ولكن وجوه  
القائمين حولك كنت أراها متألفة بنورك، وأنت كانت  
تدهشك كل حركة مني كأنها لم يأتها قبلي إنسان.

أنت لم تكن لي شيئاً وأنا لم أكن لك شيئاً. ولكن أليس  
أن ارادتك حلّقت فوق خواطري كيدٍ آمرة فتقت لأجلها إلى  
الطاعة والخضوع؟ أو ليس أنك كنت تحاول إرضائي وإثارة

إعجابي حتى ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجلت بهياً  
عظيماً؟

من أنت؟ وماذا كنت؟

أكنت وحيّاً من فيض شاعريتي المكتظة، وطيفاً من  
أطياف شوقي وعذابي؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق  
حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية؟ لقد كنت  
وحيّاً من فيض شاعريتي المكتظة، وكنت طيفاً من أطياف  
شوقي وعذابي، وأنت حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي  
مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية.

يا مهذب!

## أَيْنَ وَطَنِي

عندما ذاعت أسماء الوطنيات،  
كتبت اسم وطني ووضعت عليه شفتيَّ أقبَلُهُ؛  
وأحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كذوي الأوطان وطناً؛  
ثم جاء دور الشرح والتفصيل فألمت بالمشاكل التي لا  
تحلّ؛

وحنيت جبهتي وأنشأت أفكر؛  
وما لبث أن انقلب التفكير في شعوراً؛  
فشعرت بانسحاق عميق يُذِلُّني؛  
لأنني، دون سواي، تلك التي لا وطن لها.

يوقظني في الصباح نفير الجيوش المودعة. ولدوي أبواق  
النحاس انغامٌ تثقلها دموع الفراق، وأهازيج يُجَنِّحها طلب  
التفادي والاستبسال، فأمقت الظافرين وأودُّ لحظة أن أتوحد  
وإياهم لأنسى في ثروتهم فقري، وفي بطشهم هواني.

وإذ تمرُّ مواكب الأمم المظلومة منكسة أعلامها وراء

نعوش الشهداء؛ وهتاف الحرية والاستقلال يتغلب على أنين  
الشكل والتفجّع منها، أعترز لأنّي ابنة شعب في حالة التكون  
والارتفاع، لا تابعة شعب تكوّن وارتفع ولم يبق أمامه سوى  
الانحدار.

ولكنّ الشعوب تهمس همساً يطرق مسمعي: فهؤلاء  
يقولون «أنتِ لستِ منّا لأنك من طائفة أخرى».. ويقول  
أولئك: «أنتِ لستِ منّا لأنك من جنس آخر».

فلماذا أكون، دون سواي، تلك التي لا وطن لها؟

\* \* \*

ولدتُ في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في  
بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأيّ هذه  
البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أداّفع؟

يمضي الموق تاركين للأحفاد وراثات حسية ومعنوية.  
ينعمون بها، وشرفاً قومياً يعزّزونه، وتقاليده يحافظون عليها.  
أما أنا فلم يبق لي من آثار موتاي سوى الأثقال المعلقة في  
يديّ وعنقي. أثقال إذا حاولت طرحها والفرار جرّت قدماي  
ما هو أثقل منها. فهبطتُ على طريق جلجلتي تشير نحوي  
أصابع المتشغّفين الساخرين، وليس من يد رحيمة تعين  
وتؤاسي.

تستطع السكوت، لماذا يخرج صوتك متقطعاً متهدجاً كأنك  
تجاهد لتقهر تأثراً ما؟

أنت لم تكن تعباً بوجودي، وأنا لم أكن أعباً بوجودك.

ولكن لماذا كنتُ أحاسنك متعملة الإعراض وعدم  
الانتباه؟ ولماذا، وأنت مثال الوداعة والتهذيب، كنت تكفهر  
لحضورى وتقبض كمن يود أن يتجنى عليّ، أو كمن يخشى  
أن يُرمى بالبشاشة والمجاملة، ثم يعود نظرك في المرة التالية  
يستفحصني عن زلته - أنا التي كنت أغتفر لك وأتناسى  
مرغمة قبل أن تحدّث نفسك بالاستغفار.

أنت لم تكن تفكر فيّ وأنا لم أكن أفكر فيك. ولكن لماذا  
كنت أحيّد عن طريقك لئلا ألتقي بك أنا التي أود أن أبحث  
عنك في كل مكان؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك إذ تعلم أني  
أرقبها، وتنغم نبرات صوتك وتنوعها إذ تعلم أنها واصله إليّ؟

أنت لم تكن لي شيئاً، وأنا لم أكن لك شيئاً، ولكن وجوه  
القائمين حولك كنت أراها متألقة بنورك، وأنت كانت  
تدهشك كل حركة مني كأنها لم يأتها قبلي إنسان.

أنت لم تكن لي شيئاً وأنا لم أكن لك شيئاً. ولكن أليس  
أن اردتك حلّقت فوق خواطري كيدٍ آمرة فتقت لأجلها إلى  
الطاعة والخضوع؟ أو ليس أنك كنت تحاول إرضائي وإثارة

إعجابي حتى ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجلت بهياً  
عظيماً؟

من أنت؟ وماذا كنت؟

أكنت وحيّاً من فيض شاعريتي المكتظة، وطيفاً من  
أطياف شوقي وعذابي؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق  
حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية؟ لقد كنت  
وحيّاً من فيض شاعريتي المكتظة، وكنت طيفاً من أطياف  
شوقي وعذابي، وأنت حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي  
مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية.

يا مهذب!



## أَيْنَ وَطَنِي

عندما ذاعت أسماء الوطنيات،  
كتبت اسم وطني ووضعت عليه شفتيَّ أقبَلُهُ؛  
وأحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كدوي الأوطان وطناً؛  
ثم جاء دور الشرح والتفصيل فألمت بالمشاكل التي لا  
تحلُّ؛

وحنيت جبهتي وأنشأت أفكر؛  
وما لبث أن انقلب التفكير فيَّ شعوراً؛  
فشعرت بانسحاق عميق يُذِلُّني؛  
لأنني، دون سواي، تلك التي لا وطن لها.

يوقظني في الصباح نفير الجيوش المودعة. ولدوي أبواق  
النحاس انغامٌ تثقلها دموع الفراق، وأهازيج يُجَنِّحها طلب  
التفادي والاستبسال، فأمقت الظافرين وأودُّ لحظة أن أتوحد  
وإياهم لأنسى في ثروتهم فقري، وفي بطشهم هواني.

وإذ تمرُّ مواكب الأمم المظلومة منكسة أعلامها وراء

نعوش الشهداء؛ وهتاف الحرية والاستقلال يتغلب على أنين  
الشكل والتفجع منها، أعترز لأنني ابنة شعب في حالة التكون  
والارتفاع، لا تابعة شعب تكوّن وارتفع ولم يبق أمامه سوى  
الانحدار.

ولكنّ الشعوب تهمس همساً يطرق مسمعي: فهؤلاء  
يقولون «أنتِ لستِ مناّ لأنك من طائفة أخرى».. ويقول  
أولئك: «أنتِ لستِ مناّ لأنك من جنس آخر».

فلماذا أكون، دون سواي، تلك التي لا وطن لها؟

\* \* \*

ولدتُ في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في  
بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأيّ هذه  
البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟

يمضي الموق تاركين للأحفاد وراثات حسية ومعنوية.  
ينعمون بها، وشرفاً قومياً يعززون، وتقاليد يحافظون عليها.  
أما أنا فلم يبق لي من آثار موتاي سوى الأثقال المعلقة في  
يديّ وعنقي. أثقال إذا حاولت طرحها والفرار جرّت قدماي  
ما هو أثقل منها. فهبطتُ على طريق جلعليتي تشير نحوي  
أصابع المتشققين الساخرين، وليس من يد رحيمة تعين  
وتؤاسي.

وأما متاع موتاي فاستولى عليه أولئك الأبعاد. ولو تخلوا عنه لتحكم بي هؤلاء الأقارب الذين عيّرتني منهم القحة بصفات انقلبت عندهم عيوباً، وأنكر عليّ الحسد منهم والخمول حقّ التمتع بما اشتريته بالجهود والعبرات.

بأي اللهجات أففاهم والناس، وبأي الروابط أربط؟ أتقيد بلغة جماعتي وهي، على زعمهم، ليست لي ولم توجد لأمثالي؟ أم أكتفي بلغة الغرباء وأنا في نظرهم متهجمة عليها؟ أصون عادات قديمة يحاربها اليوم الناهضون أم أقبل الأساليب الحديثة فأكون لسهام المحافظين هدفاً؟

إذا جاملت العتيّ توصلاً إلى ما لا غنى عنه قالوا عبدة تمرغ جبهتها في التراب وتترلف، وإذا جعلت لي من المصارحة سلاحاً، ومن الأنفة حصناً، سبط عليّ اليد الحديدية، ومزقتني السنة «الإخوان»، وانفضّ من حولي «المخلصون» لأنهم إنما خلقوا لمساعدة نفوسهم.

فلماذا قُدر عليّ أن أكون ابنة وطن تنقصه شروط الوطنية، فأمسي تلك التي لا وطن لها؟

\* \* \*

كل أمة تحدّث عن عظمتها وفضلها على المدنية ونبلها في صيانة حقوق الضعفاء -، فبأي الأمم أعجب؟

وكل أمة - دون سواها - تحمي ذمار الحرية وتزود عن  
العدل والمساواة والاخاء، - فعلى أي الأمم أتكلم؟

وكل دين - دون سواه - احتكر لاتباعه الشرف والفضيلة  
في الحياة، والسماء والألوهية بعد الممات، - فأبي الأديان  
أعتق؟

وكل حزب يدّعي الصدق والعصمة، وكل فرد صائب  
الرأي يضحيّ الخير الخاص للخير العام، - فأبي الأحزاب  
أصدق وأي الأفراد اتبع؟

ما سمعت وصف بلاد إلا سعى إليها اشتياقي .  
ولا حدثت عن بسالة أمة وسؤدها إلا تمنيتها أمتي .  
ولا أصغيت إلى صوت قوم إلا خلته صوت يأسى وأمل .  
ولا تبينت عيوب شعب ومفاخره إلا أدركتها صورة  
مفاخري وعيوبي .

ولا رمت طائفة طائفةً بالتعصب والمغالات إلا وجدت فيّ  
هذه المغالاة وذاك التعصب .

ولا تخيلت مسافات الأرض وأبعاد الفلك والصحارى  
والبحار والكواكب والعوالم إلا احتاجني الحنين إليها كأنها

أوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتي وتنتظرنني فيها قلوب  
الأحباب والخللان.

أمّا وقوى اعزازي تتوزّع باستهتار وجنون، فلماذا تتجمع  
قوى اكتئاب عميقة مرهفة لأنني أنا وحدي في الدنيا - تلك التي  
لا وطن لها؟

\* \* \*

بنسيم وطني امتزج الوحي والنبوءات،  
ومع أشعة الشمس فيه انتشرت صور الجمال،  
فكانت له حياة وهّاجة متلظية وراء مظاهر الجمود  
والهجران وخيالات الآلهة تسيرُ أبداً فيه متمهلة متأملة،  
من القمم والأودية، من الصخور والينابيع، من الأحراج  
والمروج تتعالى معاني بلادي في الضحى، وعند الشفق تتكامل  
أرواح الأشياء وتتجمهر كأنها تتداول في إنشاء عوالم جديدة.

أحبُّ عطور تربة الجود ورائحة الأرض التي دغدغها  
المحراث منذ حين. أحب الحصى والأعشاب، وقطرات الماء  
الملتجئة إلى شقوق الأصلاذ.

وأحب الأشجار ذات الظل الوارف أكانت محجوبة في  
أحشاء الوادي أم أسفرت مشرقة على البحر البعيد.

وأحب الطرق الوعرة المتوارية في قلب الغاب، وتلك  
المتلوية على أكتاف الجبال كالأفاعي البيضاء، وتلك السبل  
الطويلة الممتدة الممتدة، وكأن الغبار الذهبي منها ينتهي إلى  
قرص الشمس.

ولكن يكفي أن نحب شيئاً ليصير لنا؟ وهكذا رغم حبي  
الأفيح أنا في وطني تلك الشريدة الطريدة لا وطن لها.

جربْتُ من الوطنيات صنوفاً: وطنية الأفكار والأذواق  
والميل،

وتلك الوطنية القدسية المثل: وطنية القلوب،  
فوجدتُ في عالم المعنى ما عرفته في عالم الحس.  
إلا بقعة بعيدة تفرّدت فيها الصور وتسامت المعاني.  
ثَقَّفني أبناء وطني، وأدبني أبناء الأوطان الأخرى،  
وأسعدني أبناء وطني وأسعدني الغرباء أيضاً،  
ولا ميزة لأبناء وطني في أنهم أوسعوني أيلاماً،  
فقد نالني من الغرباء أذى كثير:  
فبأي الأقيسة أقيس أبناء الوطن،  
ولماذا أكون أنا وحدي تلك التي لا تدري أين وطنها؟

\* \* \*

أيها السعداء ذوي الأهل والأوطان، عرّفوا لي سعادتكم  
واشركوني فيها!

رضيتُ حيناً بأنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن من وطن، أما اليوم فصرت أعلم أن للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطناً. صرت أعرف ضعف الإنسان الذي إذا مال إلى النوم والراحة طلب مضجعاً ناعماً لجسمه المضنى لا مرجأً واسعاً يتناوله منه الحر والبرد، ولا بحرأً عرمرماً تبتلعه منه اللجج.

إني أعبد تفطرك الصامت، أيها الفيلسوف القديم، أنت الذي بعد أن اكتشفت آيات الفكر وعجائبه، أرسلت زفرة كأنها شكوى الدهور فقلت: إنما أريد صديقاً لأموت لأجله.

وأنا أجنو الآن خاشعة أمام ذكرك مرددة ما يشبه قولك: إنما أريد وطناً لأموت لأجله - أو لأحيا به!

## عند قدي أبي الهول

الأفق واسع واسع، والليل عميق عميق، وأنوار المساكن  
وأضواء الشهب في أحشاء الدجى جراح وحروق. وأصوات  
المدينة تحدث عن أوصاب المدينة جاهلة ما عداها. لذلك  
جئت ناديك أنشد اختلاء وراء تلال فصلت بين عمران البشر  
الضاحّ المقيد وعمرانك المستقل في حضن السكوت غير  
المتناهي.

تتألى على البسيطة شعوبٌ ودولٌ تأتي بالأديان والشرائع  
واللغات والعادات، وتتبارى في محق عمل الأجيال زلازل  
وبراكين وصواعق وأوبئة وثورات وزعازع وطوفانات. وأنت  
هنا رابض أمام أهرام انتصبت في وجه الفضاء تنقض أحكام  
الفناء. والهيكل تلقي بين يديك حديث الدهر بالفاظ الحجر  
والصوان وتعززه بصور الأرباب والملوك والكمأة.

وكان ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة  
خطابها بلاغته وروعته.



ههنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء  
 مملكة الكتمان والجلال والاياء، وعظمة القياصرة حديثة  
 النعمة ودميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة. والانسان  
 المتطاوّل الشغوف بهتك الأستار يدخل أيوان وحدتك السنيّ.  
 ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الأشباح الفانية، وغير  
 ملموس لهذه الأيدي الذبابة المتقلّة على مخالبك ومنكبك  
 تلهياً واستقصاءً.

غير أن الانسان ليس بالمتلهي المستقصي فحسب، بل هو  
 خصوصاً الدنف المتألم. يتناوله من الكون قهراً دوار الفواقع  
 والنوائب فيدرك أن الثبات العام منسوج من الوجّل  
 والاضطراب، وأن البقاء الظاهر مصنوع من التغير والتحول.  
 يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر. يدرك أن عجاجات  
 القوى تضيع جزافاً في شلال الذراري والأنسال الجارف الآلهة  
 والمحاربين والشارعين والقديسين والأنبياء والقتلة والقتلى  
 سواسية. يرى التعاسة على طريق العروش، والصوالة  
 والتيجان تختلط بقيود المجرمين. يرى الأعراس والجنازات  
 والمواليد والوفيات يتخللها العوز والبطر، والمرض والعافية،  
 والخيانة والأمانة، والدعوى والتطير، والضلال والهدى. وازاء  
 ما يفطره ويعذب سواه يظل الكون على ما هو، والخلائق  
 والأشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة، وكل ما

خال منها وشيكاً كان نهاية تعقبها بدايةً وأنقاضاً تستوي عليها  
الأسس .

وإذ يزفر طالباً للحوادث تفسيراً يقال له «هذه هي  
الحياة!» «ما هذا إلا الحياة»، «لا تكون الحياة إلا كذا» نعم .  
يا أبا الأهوال الساهي، ازاء الهبة والحرمان، والوفاء والغدر،  
والبياض والسواد، والفخار والمذلة، والغلبة والانحدار، إزاء  
كل مسرة وكل توجع، التفسير واحد لا يتغير! إننا نفسر الحياة  
بالحياة، وندأوي داء الحياة بمصل الحياة، ونهرب من الحياة  
لنجدنا والحياة وجهاً لوجه .

\* \* \*

وأنا صورة من ملايين صور الحياة نهضتُ أتفهم الحياة  
كما نهض جميع أولئك المساكين . وكما وقفت قديماً على طريق  
طيبة تلقي الأسئلة على العابرين وقفت أسأل أبناء السبيل عن  
معنى الحياة، فقال أحدهم «هي صدر الأم» .

فالتصقت بصدر أمي فإذا أنا منه في عش دفء وحرارة  
وحصن مناعة وأمان، لا ترعبني الرياح العاصفة والرعود  
الداوية والبروق المملعة والسيول المتدفقة . ومريوم . فضاقت  
بي صدر أمي وعدت إلى موقفي أسأل «ما هي الحياة؟» .

فأجاب مجيب «هي الدين والتقوى» .

❦

فبادرت أمرّغ جبّهتي على عتبة المذبح مخفية أداة التقشف  
والأمانة تحت مزركش الأثواب. وأقرع صدري مستغفرة عن  
آثام لم أرتكبها وذنوب لم تخطر على بالي. فناجتني الصور  
الصامتة في أطرها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير.  
فمر يوم. وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً انقلب كالمرمر  
صلابة وبرودة. وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مسرحياً.  
وأرواح البخور التي كانت تنزل عليّ فيض الرحي والالهام  
غدت مزعجة كعطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف. فعدت  
إلى مكاني من السبيل سائلة «ما هي الحياة؟».

فقال صوت الغرور «وهل هي للفتاة غير التيه والدلال  
والتظرف؟»

فمضيت أساجل مرآتي فتعشقت صورتي فيها. ولم أكن  
أفارق تلك الصورة إلا لأبحث عما يزينها ويحملها. وكان  
يبكيني مشهد الباكين، فأصبحت وقد تذوقت لذة اللهو واللعب  
في نسل خيوط القلوب. ومر يوم. فأطل شبح الملل في عيني.  
فعدت أسأل أبناء السبيل «ما هي الحياة؟».

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات  
وقال: «هي الثروة والجاه العالمي وأبهة العمران».

فعدت في سبيل هذه، سوى أني لم أصرف ساعة حتى  
تحجّر كياني. فعدت والضجر يقتلني أسأل «ما هي الحياة؟».

سألت طويلاً وبكيت غزيراً، وقنطت حتى طلبت الموت  
فانبثقت صورة من غور عنائي. لم تتكلم وإنما فهمت أن  
الحياة عندها. أرايت، يا أبا الهول، النجوم راقصة؟ بلحظة  
تلمل ثابت النواميس فرققت جميع النجوم حولي، وخشعت  
الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت،  
وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد - أو فخرت بنسخ خطٍّ  
من خطوطه وانتحال معنى من معانيه. واستحدثت جميع  
الأشربة نورها من تألق عينين اثنتين، وصارت زرقاء الجو  
وبهجة الربيع وطلاوة الأمواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك  
البسمة - تلك البسمة البطيئة الرقيقة النادرة. واستدعتني  
الألوهية إلى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب  
الوجود وقمت وإياه بإدارة حركة الأكوان. فمر يوم. فقمعت  
ثورة النجوم وقدمت خضوعها للنظام الأوحد، وعادت لكل  
كائن أهميته في الخليقة. فرجعت أسأل العابرين «ما هي  
الحياة؟».

فقال صوت العلم الرزين «أنا الحياة لأنني أشرح الحياة».  
فألقيت بنفسي في الخضم الزاخر أعالج العلم المادي تارةً  
والفلسفة الروحانية أخرى. كم من علم خلقنا، أيها المليك،  
لنبحث عما لا يُعلم، وكم من لغة أبدعنا لنشرح ما لا  
يشرح! فهداني الجهابذة إلى القوة التي يتم بها التفاعل الكوني

بين الأجرام فلا تتفلت من عناقها شمس ولا ذرة: الجاذبية. فسألت: وما هي هذه الجاذبية، من رآها من سمعها، من لمسها؟ أهي وسيط ينتقل على تموج الأثير، أم هي سيال يتموج بنفسه مستقلاً عن العناصر؟ فأجابوا «ذاك سر الحياة وهو مجهول».

الحياة! مجهول! لفظتان تمثلان الانفصال والاتحاد جميعاً.

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطنافس ناعمة - منذ أربعة آلاف سنة، يا حارس الصحراء، منذ أربعة آلاف سنة والعلم يقلب الذرة الواحدة منها ويديرها ويقسمها ويجزئها تقسيمها. لقد نحرها بحثاً ودرساً وتحليلاً متلمساً علة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها. فسارت جهوده من مجهول إلى مجهول ومن استفهام إلى استفهام. وما زال مثلي أنا الطفلة الغريرة يسأل «ما هي الحياة؟ ما هي الحياة؟»

كذلك طال استجوابي للسبالة فضحك كثيرون ومضوا لأنهم لم يفهموا، والقليلون الذين وقفوا وأجابوا أرهفوا في اللجاجة والحرقرة والأسى.

\* \* \*

يا وليد بابل أم السحر والتعاويد، إلى أي حقيقة رمز بك الرامزون؟ ولماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي إلى سرداب امتد وتاه في مجاهل الأهرام؟ لماذا أودعوا قلبك مفتاح

باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون للآلهة الهواتف؟  
ولماذا لا يعرف موضع أصغرك إلا جوف منك سوى شفئك  
المطبقتين على كرّ الأعقاب؟

تفتّر شفتاك دون كشف وإعلان، أتأكيد هذه البسمة أم  
إيهام؟ إشفاق على دماء المفاداة وقد اذيت فيها الأوحال، أم  
لأن ما هو كائن أقلص من ظل حصاة حيال ما سيكون؟

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحيي عُبدَ من منبعه إلى  
مصبه لما يظهره من اريحية ووفاء، أتدرك معنى احمراره الصيفي  
ومعنى خصبه؟ أتفهم معنى شكل هندسي تجلّب به أهرامك  
الخالدة؟ أنت الذي نحتك الكلدان قبل أن يرسموا دائرة  
البروج، أتعلم ما إذا كانت هذه الأهرام منائر للصحراء، أم  
مدافن للفراعنة، أم حصون دفاع، أم مستودعات كنوز، أم  
مجمع عشاق، أم محفلًا فيه يدين أوزيريس موته؟ أتعلم لماذا  
أدرجت أوراق البردي وأسرارها الهيروغليفية طيّ الأكفان مع  
الموميات في التوابيت والنواويس؟ أتعرف معنى سوسن الماء  
وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدس؟ نحن  
الجهلاء نعلم أن جميع هذه إنما هي رموزٌ إلى الحياة المتحركة  
فيها، وأنت ألم يبق لك ما يُكتسب ههنا لتحول نظرك وتسكت  
سكوتًا لا ينتهي؟

أم أنت لا ترقب هناك سوى ما نرقب؟ أترصد حركة  
الأصبع الموجّه الابرة المغنطة نحو الشمال تجر بعدها النُظُم  
الشمسية وهيئات الكواكب؟ أم تستعرض مواكب الأنوار  
والظلمات، وجيوش الثوابت والسيارات، وجحافل الأمكنة  
والأزمئة، أم أنت تتهجأ اسم الحياة يخطّه قلم النواميس  
بحروف الشمس والمذنبات والسدم والعوالم؟ أم يذهلك  
تدفق الفيض الإلهي من وراء حجب الوجود ليتكوّن أثيراً  
وهواءً وناراً وماءً وهيولاً؟

نحن مثلك نرقب ونتوقع ونتوقع ونترقب، فهل تعلم ما  
هذا الذي ننتظره ونتنظره الآفاق المنحنية علينا؟ لقد سُجِنَّا في  
حالك الظلمات تَحترقها خيوط النور حيناً بعد حين فنهبُ  
نحسبها مقدمة لتحقيق الرجية، وما هي غير السراب الخداع  
فيزيد الظلام حلماً ونلبث في الانتظار مترددين.

لقد دفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت  
ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تغزونا الكوارث. وتفتك بنا  
الدواهي فنظل نترقب ونرجو.

أصبح أن لغزك لغز الدهور أم خلقتك الانسان رمزاً له  
كما خلق آلهته على صورته ومثاله؟ لقد أعطاك من الشور  
الخاصرتين مكمّن الغريزة الجوفية الرامزة إلى السكوت، ومن  
الأسد برائن التحمس والاستماتة الرامزة إلى الجرأة، ومن

لنسر الجناحين المحلقين في بعيد المدى الرامزين إلى المعرفة،  
 ومنه - من انسانيته - أعطاك الرأس مشيراً إلى التبصر والارادة  
 المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال. فكيف يحصر  
 فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبه ولا يضيف إليها ما  
 بقي؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل المتجدد أبداً  
 فيه؟ أليس انه مثلك لأنك مثله؟ أليس إن في أعماقه أبا هول  
 شاخصاً أبداً في السموات العلى كلما ظفر بفجر وشروق لبث  
 يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة؟



## فهرست

٩	..... من كوة الحياة
١١	..... أنا والطفل
١٧	..... بين عامين
٢٠	..... نشيد نهر الصفا
٢٧	..... الساعة المفقودة
٣٢	..... يا سيدة البحار
٣٦	..... بكاء الطفل ..
٣٩	..... دمعة على المغرد الصامت
٤٥	..... نحو مرقص الحياة
٤٦	..... نحو مرقص الحياة
٥٣	..... الذكرى الجديدة
٥٧	..... العيون
٦١	..... الحكيم ومطالب الحكمة
٦٣	..... ليلة عيد النصر
٧١	..... الطبيعة المعمرة المدمرة

٧٣	يوم الموق .....
٨٢	في مرقص الحياة .....
٨٥	كن سعيداً .....
٩٣	السهرات الراقصات .....
٩٩	الموضوع التائه .....
١٠٦	انت ايها الغريب .....
١١١	قرب منعطف السبيل .....
١١٥	اين وطني .....
١٢٢	عند قدمي أبي الهول .....



## هذا الكتاب

ليس في الثلث الأول من هذا القرن صوت أدبي نسائي  
أشهى من صوت تحت زنباده .  
وليس من فصح كنشعراً يلقح فيضياً داعياً إلى الحرية  
والثقة بحارة لركب المحضارة في شتى الميادين والسبل .  
وهي في كل ما كتبت تجتهد طموح الأتلام المستنيرة  
إلى التجديد الأدبي أبلغاً في الشغل التعبيري وفي المضمون  
الفنكري ، فضلاً عن أنها تجتهد طموح المرأة العربية  
إلى الحياة ، وطموح الأمة إلى الدخول في حركة العصر  
وبناء المجتمع والوطن .

هذه المرأة الشاعرة بمجموعة خطب ومقالات القلم  
تتبع في مناسبات عديدة ، وفي موضوعات مختلفة ،  
لاسيما موضوع المرأة الشرقية وحقوقها في الحياة  
والحرية ووعا في التقدم الاجتماعي والقوي بأسلوب  
اختار وعبرة تتفجر عافية وأبداعاً .

هنا شريك